جامعة محمد خيضر بسكـرة
كليــة الآداب واللغـات
قسم الأدب واللغة العربية

الأنــا المثاليــة
فــي
شعر المتنبي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر في الآداب واللغة العربية
تخصص: أدب قديم

إعداد الطالب:
عبد الحميد لغلغ

إشراف الأستاذ الدكتور:
سليم بتقـة

السنة الجامعية: 1434/1433 هـ
2012/ 2013 م

شكـــر وعرفـــان

أقدم شكري وتقديري للدكتور سليم بتقة

–وهو أستاذ محاضر بجامعة محمد خيضر، كلية الآداب واللغات–

لتكرمه بالإشراف على هذه المذكرة

والذي كان لتوجيهاته أكبر الأثر في ظهورها

فبارك الله في جهوده، وحفظه من كل سوء

وأسأل الله تعالى أن يضاعف له المثوبة والعطاء

والشكر موصول كذلك لكل من مدّ لي عونا ماديا أو معنويا

الطالب: عبد الحميد لغلغ

إهــداء

أهدي ثمرة جهدي وسهر ليلي إلى:

والديّ الكريمين اللذين كانت، ومازالت دعواتهما تنير لي طريقي

فاللهم احفظهما في الأولى، ومتعهما بجنتك في الأخرى

وإلى رفيقة دربي وسندي وأم أولادي زوجتي الغالية

وإلى زهرات عمري وفلذات كبدي أسامة، ومروان، ومحمد إسلام، وإشراق،

وحمزة، وفراس

وإلى أختي الغاليتين وريدة وفاطمة وفضلهما عليّ لا ينسى

وإلى ابن خالي بلقاسم وابن عمي عبد الرحمان،

لهما عليّ يد من فضل لا تنسى كذلك

وإلى أولاد أختي الأحبة: عثمان، صديقة، إبراهيم، ياسمينة شهرة ،حسام آسيا،

إفريقيا، أوروبا، ليلى، توفيق، وسناء

حفظهم الله جميعا من كل سوء

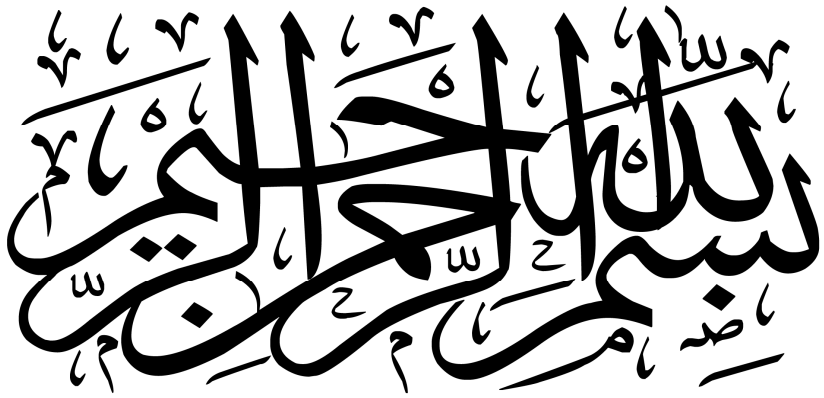

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(26)
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي(27) يَفْقَهُوا قَوْلِي(28)

صدق الله العظيم

سورة طه

مقدمــة

مقدمــة:

قيل إن الشعر الجيد لا يكون إلا صرخة مدوية، لا تصدر ولا تنبعث إلا ن قلب دام، أو ثغر باسم. فهو ملكة لا توهب إلا لذي حس مرهف، وهو كذلك لغة للإيحاء بالمشاعر والخيال، وسياحة في عالم الذوق والجمال.

ولقد عرفت العربية شعراء كثر، بيْد أن النابهين، والذين نبغوا في الشعر، فهم قلة قليلون وعلى رأسهم، وحامل لوائهم، شاعرنا أحمد بن الحسين الجعفي، كنيته أبو الطيب ولقبه المتنبي (915-965م/ 303-354هـ).

كان ذا همة تنطح السحاب، ونفس طموح لا ترضى إلا العظمة والشموخ والكبرياء، وعزيمة تأبى إلا المغامرة والكفاح، فانتهت به إلى انتفاخ الأنا وتضخمها، فساء ظنه بمجتمعه، فاحتقر الناس وذمّ الزمان، كما افتخر بنفسه، وأشاد بهمته وعظمته التي سعى وراءها منذ صباه: تارة بالثورة، وطورا باستغلال النزعات الدينية، تارة بالشعر، وطورا بالفروسية، فأفضى به ذلك إلى جنون العظمة التي صرعته فكان شهيد طغيانها وفريسة أطماعها.

ولما كان ذلك اقتضى الأمر طرح تساؤلات عدة، من قبيل:

ما الأسباب التي ساهمت في انتفاخ الأنا عند المتنبي؟ هل هي أسباب اجتماعية؟ أو عوامل سياسية أم ثقافية؟ أم هي ظروف ذاتية؟ أم هي جميعها؟

هذه التساؤلات كلها تتضح إجاباتها لاحقا بشيء من التفصيل، متبعا المنهج النفسي الذي يعتبر المنهج الأوفق لمثل هذا النوع من الدراسات التي تُعنى بالإنسان من الداخل، وتهتم بخباياه وسرائره، وهذا ما سأتطرق إليه في هذه المذكرة التي وردت تحت عنوان: "الأنا المثالية في شعر المتنبي".

ولما استشرت الدكتور الفاضل سليم بتقة، الذي تكرم بإشرافه على هذه المذكرة - وهو أستاذ محاضر بكلية الآداب واللغات في جامعة محمد خيضر بسكرة -في موضوعها، اقترح عليّ موضوعين، أحدهما: الأنا المثالية في شعر المتنبي- والآخر: في أدب الرحلات ابن فضلان -نموذجا- فكان الأول منهما الأقرب إلى رغبتي لأنه لامس هوًى كامنا في نفسي منذ بواكير حياتي، لقد كان لشعر المتنبي حضورا ملموسا في مراحل التعليم، أيام كنت طالبا، الذي جعل نفسي تفيض إعجابا بهذه العبقرية الشاعرية المتفردة، التي ملأت أسماع الناس وأبصارهم، وكيف لا تستهويني هذه الشخصية المحلقة

كطير السماء؟ والمتعالية كنسيم الهواء، إنه الشاعر الذي مزّق حجب الزمان، وجعل الدّهر يردد قصائده، والأعمى يرى أدبه، والأصم يسمع كلماته.

وقد رأينا أنه من الممكن أن نقسم موضوع المذكرة إلى:

مدخل تمهيدي تناولنا فيه تعريف الأنا في اللغة وعلم النفس، وكذا المثالية في اللغة والفلسفة، أما الفصل الأول فعالجنا فيه المؤثرات الخارجية في شخصية المتنبي، من حياة اجتماعية، وسياسية وثقافية، وحاولنا أن نضع أيدينا على ماله علاقة بأنيّة أبي الطيب.

وأما الفصل الثاني فجاء تحت عنوان الأنا المثالية في شعر المتنبي، تناولنا في العنصر الأول منه المثالية عند المتنبي حيث تطرقنا إلى مثالية المتعة والجمال والعظمة، وفي العنصر الثاني عالجنا الأنا المثالية المتعالية وعرفنا أن النزوع إلى التعالي متجذّر في نفس المتنبي، والآخِر تطرقنا فيه إلى الآخر الأنا فتجلى لنا أن مديح المتنبي لا ينطلق إلا من ذاته ولا يعود إلا إليها، أو ما يسمى بالمدح المعكوس، ثم أنهينا البحث بخاتمة تطرقنا فيها إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها.

أما أهم الدراسات التي اعتمدت عليها في هذه المذكرة هي، المثالية في الشعر العربي لموهوب مصطفاي، المتنبي شاعر السيف والقلم لفوزي عطوي، مع المتنبي لطه حسين، الجديد في الأدب العربي لحنا الفاخوري، أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي لريجيس بلاشير.

وكما يعلم الدارسون والمهتمون بالأدب العربي، أن ما أنجز من دراسات حول المتنبي تكاد لا تحصى بيْد أن التي تناولته من داخله فقليلة، شحيحة ونادرة، وهذا ما جعلني أجد صعوبة في جمع المادة التي تهتم بأنيّة المتنبي، ولذا اعتمدت على ما توافر لي من مراجع، وعلى ما قدمه لي الدكتور سليم بتقة من كتب، وأشكره على ما أحاطني به من رعاية وتوجيهات وحسن استقبال في كل مكان قابلته فيه.

والدراسة التي أمامكم هي أقصى ما استطعت الوصول إليه وإنجازه، إن وفقت فمن الله وحده وإن قصّرت فمن نفسي، فكل مُنتَج بشري يعتريه النقص، فكيف إذن بطالب لا يزال يتعلم؟

وأخيرا وليس آخرا أتقدم بجزيل الشكر لأعضاء لجنة المناقشة على ما سيتحملونه من عناء قراءة هذه المذكرة، وسأكون سعيدا يوم المناقشة –إن شاء الله– بملاحظاتهم القيمة وآرائهم السديدة.

مدخـل:

مفاهيم ومصطلحات

مدخل تمهيدي

لست أعدو الحق إذا قلت: إن الأدب العالي لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين: الحب أو الحقد. ولن نجد في تاريخ الآداب العربية كاتبا مجيدا أو شاعرا بليغا أو خطيبا منطقيا خلت نفسه من رقة الحب، أو قسوة البغض.

فالسر في عبقرية البحتري مثلا يرجع إلى قوة شغفه بمعالم الجمال، كما أن السر في عبقرية ابن الرومي يرجع إلى تطيّره وحقده على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس. وكذلك يعود السر في تفوق عبد الحميد بن يحى الكاتب إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتّاب، كما يعود الفضل في فصاحة الحجاج إلى ما كان يضطرم في صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض على الثائرين من أهل العراق، كما أن أبا حيان التوحيدي رجل خلقته البأساء، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه، ولن تجده في صميم أدبه إلا رعدا يزمجر كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر، والنعيم والبؤس، والنباهة والخمول[1].

أما أبو الطيب المتنبي الذي نريد أن نفيض في الحديث عنه فهو رجل تنازعته العاطفتان كلتاهما، عاطفة الحب، وعاطفة البغض، أما أولاهما فتتمثل في أنه هام في حب نفسه حتى تضخمت الأنا عنده، وغدا لا يرى في الوجود إلا نفسه مثالا للكمال الإنساني، بلغ المتنبي أوكاد، مبلغ الجنون، ولكنه جنون العظمة المثالية، حتى ليحسب نفسه من غير طينة الناس، لا يُشبّه بشيء، ولا يشبهه شيء؛ ولا أحد فوقه، ولا أحد مثله!! والناس كلهم دونه، على ما كان يتوهمه بجنون عظمته المحلقة في المثاليات، وقال في صباه:

أمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي، ولا أحد مثلي[2]

وأخراهما تتجلى في بغضه للناس لأن من امتلأ قلبه بحب نفسه لا يمكن أن يدع فيه مكانا لغيره، هو ليس بغض لكل الناس ولكن لمن يراهم منافسين وحاسدين، ونادرا ما يتفق لك أن تقرأ قصيدة للمتنبي، في فن غير الهجاء، دون أن تطالعك أبيات صاعقة، كأنها القذائف القتّالة، يرميها تشفّيا وانتقاما في وجه الحاسدين الشامتين المتطاولين إلى

([1]) زكي مبارك، **النثر الفني في القرن الرابع**، دار الجيل بيروت، د.ت، ج2، ص:161.

([2]) ديوان المتنبي، مراجعة د.يوسف الشيخ محمد البقاي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1، 2005، ص:172.

منزلته، ولاسيما يوم يتمثل له الناس تماثيل من خبث يتقنع بالوداد ومن لؤم يتستر بنبل الخُلُق:

ولما صار ودّ الناس خبّا جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن اصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام[1]

وقبل أن نبسط القول في موضوع هذه المذكرة –الأنا المثالية في شعر المتنبي– يحسن بنا أن نعرف كلا من الأنا والمثالية في اللغة وعلم النفس والفلسفة.

([1]) ناصيف اليازجي، **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج2، ص:916.

أولا: الأنا في اللغة وعلم النفس:

أ-الأنا في اللغة:

هو لفظ يشير به كل أحد إلى نفسه، وأعرف المعارف عند كل أحد نفسه[1]

وأنا: ضمير المخبر عن نفسه وتحذف ألفه في الوصل في لغة وتثبت في لغة، وقوله عزوجل "لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي" [الكهف 38] فقد قيل تقديره لكن أنا هو الله ربي فحذف الهمزة من أوله وأدغم النون في النون، وقرئ لكنّ هو الله ربي، فحذف الألف أيضا من آخره، ويقال أنّية الشيء وأنيّته كما يقال ذاته وذلك إشارة إلى وجود الشيء[2].

أنا: ضمير رفع منفصل للمتكلم والمتكلمة، الأنانة قولك أنا، الأناني: المحب لنفسه حبا مفرطا،

الأنانية: تمدّح الإنسان بما ليس عنده إعجابا بنفسه وتكبرا، أو هي حب النفس المفرط مع عدم التفكير في الغير[3].

ب-الأنا في علم النفس:

الأنا هو ذلك الجزء من الجهاز النفسي والذي تكوّن بفعل التراكم المكتسب من العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية المأخوذة من الأسرة والمدرسة والعمل وغيرها من الوحدات الاجتماعية، وظيفته الأساسية جعل الفرد يعيش وينسجم مع الجماعة سواء كانت جماعة أسرة أو مجتمع.

إنه الضابط الخلقي للفرد، أو ضابط إيقاع الغرائز، وكل دافع ينطلق من الهو ويحاول الأنا تمريره، يتوقف إشباعه على موقف الأنا الأعلى. فهو الذي يسمح بذلك وبذا يتحقق أن الإشباع وهو الذي يمنع ذلك فنكون في وضعية كبت، وهو يوازي الضمير في المفهوم العام في وجوده تحترم اللياقة الاجتماعية وفي غيابه تنتهك، إذن نمو جهاز قضائي رادع لكل فرد يحاول أن يخرق القوانين والأعراف الاجتماعية لمجموعة بشرية ما[4].

([1]) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ج1، ص:148.

([2])الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ط4، سنة 2005، دار المعرفة للطباعة والشر، بيروت، ص:36، 37.

([3]) مجموعة من الأساتذة، **المنجد في اللغة والأعلام**، ط27 سنة 1984، دار المشرق ش م م بيروت، ، ص:19.

([4])-فيصل عباس، **مدخل إلى علم النفس**، ط1 سنة 2001، دار المنهل اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ص:45، 46..

ثانيا: المثالية في اللغة والفلسفة:

المثالية مصدر صيغ من المثال للدلالة على مذهب فلسفي أو أدبي، او فني عام، وفي الفن خاصة هو تفوق في الكيف أو كمال فيه[1].

أ-المثالية في اللغة:

مثل: المثل، النظير. والمثل: السائر من أمثال العرب. ومثل به: إذا نكّل به. ومثل الرجل قائما: انتصب.

ومثل يمثل: زال عن موضعه. والمثال: الفراش وجمعه مثل. وفلان أمثلُ بني فلان، أي: أدناهم للخير وأماثل القوم: خيارهم[2].

والأمثل الأفضل، وسئل أبو الهيثم عن مالك قال الرجل: ائتني بقومك، فقال: إن قومي مثل؛ قال أبو الهيثم: يريد أنهم سادات ليس فوقهم أحد

قوله تعالى حكاية عن فرعون أنه قال: "وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى" [طه63]؛ قال الأخفش، المثلى تأنيث الأمثل كالقصوى تأنيث الأقصى، وقال أبو إسحاق: معنى الأمثل ذو الفضل الذي يستحق أن يقال هو أمثل قومه، وفي الحديث الذي رواه البخاري: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" أي: الأشرف فالأشرف. والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة[3].

ب-المثالية في الفلسفة:

إن أول فيلسوف اشتهر بمذهبه المثالي هو أفلاطون، يرى هذا الفيلسوف أن للعالم ظاهرا وباطنا والباطن هو عالم المعقولات فوجه عنايته كلها للكشف عن هذا العالم عن طريق الجدل السقراطي الذي صار عنده هو الفلسفة التي ينبغي أن نفهم منها علم المثال، أما نظرية المثال فأفلاطونية رغم إسنادها إلى سقراط بيد أن سقراط سيبقى مصدرا ومنبعا لهذه الفلسفة لأن أفلاطون الذي تأثر بقراطيوس* وهيراقليطس** بدا له أن الأشياء

([1]) موهوب مصطفاي، **المثالية في الشعر العربي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:1982، ص:17.

([2]) أحمد بن فارس، **مجمل اللغة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، سنة 2005، ص:609، 610.

([3]) ابن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، سنة2008، المجلد4، ص:3387.

المحسوسة بتغيرها لا تصلح أن تكون علما؛ لأن موضوع العلم حسب سقراط هو جوهر الأشياء الثابت فسمى الجواهر باسم المثل وجعل الأشياء توجد بمشاركتها للمثل[1].

ثم إن النفس عند أفلاطون خالدة فكانت تحيا قبل حلولها في الجسم، وفي حياتها السابقة شاهدت هذه المثل فحصلت على العلم كله كذكرى لحقيقة تمتعت بها في حياتها السماوية.

وهكذا يكون الجوهر أو المثال هو موضوع العلم وتتلخص هذه الجواهر أو المثل في الحق والجمال والخير وهي الحقائق الكاملة التي شاهدتها النفس قبل مولدها، فإن كانت الأشياء الجميلة تتغير أبدا، فجوهر الجمال لا يطرأ عليه أي تغيير والمعرفة تتطلب ثبات الموضوع. وأفلاطون يسخر من الذين لا يؤمنون إلا بما ترى أعينهم وتلمس أيديهم لأنهم عمي عن الحقيقة التي تخفى وراء المحسوسات، وليس العميان أولئك الذين فقدوا أبصارهم ولكن العميان الذين لا يرون بعين البصيرة التي هي أنفس كثيرا من عين الجسم لأن الواقع الحقيقي هو الواقع الذي لا تدركه الحواس. وهكذا يصبح أمامنا عالمان متمايزان أحدهما محسوس والآخر معقول باق وهو عالم المثال والجواهر الخالدة غير أن أفلاطون لا يعد المثال شيئا فوق المحسوسات فحسب، بل يحاول أن يبين أن الخيال هو علة وجود الأشياء ولذلك كان المثال موضوع العلم لأن العلم هو بحث عن العلل، فتكون حيث العلة الحقيقية عند أفلاطون هي الأفضل والأكمل وهذا الكمال هو كمال المثال الذي تحاول الأشياء أن تتشبه به، والأشياء بنقصانها تتبع من الجوهر الذي هو مثالها وبه تسمى فلتنظر إلى الأشياء الجميلة إنه من العبث أن تتصدى لشرح جمال الأشياء المحسوسات باعتبارها خاصة وحسية كازدهار الألوان أو تناسب الصور كل هذه الاعتبارات تحجب عنا الحقيقة التي هي جميلة بفضل مثال الجمال لأن الأشياء موجودة بسبب مشاركتها للمثال.

إن رؤية الأشياء الجميلة تنبه فينا ذكر الجمال الذي شاهدته النفس من قبل وهي متجهة إليه حتى تحصل من جديد على المتعة الكاملة التي تجل عن هذا الوصف، وهكذا ينبغي أن تسمو بأجنحة الحب مرتقين من حب جمال الأجسام إلى حب جمال النفس

(*) قراطيلوس: تلميذ هيراقليطس وأستاذ أفلاطون

(**) هيراقليطس: فيلسوف يوناني ولد حوالي 540 ق.م.

([1]) موهوب مصطافي، مرجع سابق، ص:19.

سامين دائما من أعلى إلى أعلى منه حتى نشاهد الجمال الأسمى الخالد الذي ليس شيئا سوى إشراق جمال الخير الأمثل وإذا اتحدنا بهذا الجمال الإلهي تولدت فينا فضائل تكسبنا الكمال والخلود، تلك نظرية المثل عند أفلاطون باختصار ولكن هذا الفيلسوف لم يبين لنا العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الفن ومثله إذا كان يرى الفن محاكاة للطبيعة[1].

بعدما رأينا المثالية في الفلسفة اليونانية وعند أفلاطون على الخصوص، نود أن نعرفها في ظل الفلسفة الحديثة، يقول الدكتور موهوب مصطافي:

قد تصدى علم الجمال الحديث للبحث عن ماهية الفن عامة والشعر خاصة فلاحظ وجود قيم فنية، ويعرف الأستاذ لالند "Lalande" الفن أو الفنون بقوله: "هي إنتاج للجمال بأعمال يقوم بها شخص واع".

والجمال تفكير فلسفي في الفن وإظهار لمعنى قيمته الخاصة التي هي الجمال" وقد ظهر لفظ الجمالية في القرن الثامن عشر ولاسيما عند كانت "Kant" الذي يرى الفن تصويرا للشيء الجميل.

وهكذا يتطور الفن ومفهومه عند الغربيين حتى يصبح تعبيرا عن المثال الخالص في شكل مجسم محسوس، وحتى يتخلى عن الواقعية في اتجاهه النفعي التي تفرض عليه خدمة مُثُل اجتماعية وأخلاقية تتحقق في الواقع وتتجه نحو تهذيب النفوس والمجتمع في سبيل الصالح العام.

وهكذا تنقلب القيمة الفنية غاية بلاغية حسب تعبير كانت "Kant" ومعنى ذلك أن الفن أصبح يخدم نفسه ولا غاية له غيرها.

ويرى هيجل "Hegel" أن المثال يظهر في الجمال المثالي من خلال الحقيقة الخارجية التي هي جسم روحه المثال وهما يتشاكلان ويتداخلان. فتنحصر لذة الفن في لذة خالصة تكسب نشوة أشبه شيء بالنشوة الصوفية التي تسمو بالمتذوق لعمل فني على اللذات الحسية والعقلية[2].

([1]) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص: 21، 22.

([2]) المرجع نفسه، ص: 25، 26.

الفصل الأول

المؤثرات الخارجية

في شخصية المتنبي

ليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: إنّ أبا الطيب المتنبي يشكل الشاعر الظاهرة في أدبنا، على امتداد تاريخه، وهو ظاهرة لم تتكرر. ولئن كانت الآداب العالمية تجود بين حين وآخر بالنوابغ الأفذاذ الذين يتركون في حياتهم دويا تتردد أصداؤه في خواطر معاصريهم، وبعد موتهم، آثارا تتناقلها الأجيال بالإعجاب والإكبار، فإن جود الأدب العربي في العهد العباسي بأي الطيب المتنبي، لم يكن جودا قليلا.

ولقد أحاطت بحياة المتنبي عوامل اجتماعية وسياسية وثقافية تظافرت كلها على تكوين شخصيته الأدبية الفذة، هذه الشخصية المتفردة التي جالت تحت كل سماء، وضربت في كلّ فضاء متقلبة بين مختلف البلاطات لا يهدأ لها بال، ولا تستقر بها حال، كأني بها تريد القبض على زمام الأرض. ولما كان ذلك، أردنا أن نبسط القول في هذه العوامل أو المؤثرات التي شكلت هذه الظاهرة الشعرية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس.

أولا: الحياة الاجتماعية: [1]

ليس لدينا عن أسلاف المتنبي لأبيه معلومات تصعد إلى أبعد من أبيه الحسين، وكان هذا يقول: إن أصله من جنوبي الجزيرة العربية، مدعيا الانتساب إلى جعفي وهي بطن من سعد العشيرة من مذحج التي استقرت جماعة منها عند الفتح الإسلامي في العراق. وكان الحسين يلقب بالجعفي، وهو لقب شاع في الكوفة بين المحدثين السنيين أو الشيعة، فهل كان القاضي أبو الحسن بن أم شيبان على حق فيما رواه عن معرفته أبا الطيب المتنبي؟ إنه لمن التهور تأكيد ذلك. فإن النقطة الوحيدة التي تهمنا مع ذلك، هي اقتناعه بأنه من أصل يمني، وقد يكون لهذه النقطة إلى حد ما، تأثير على عقيدته الدينية، وكان المتنبي –كأغلب الكوفيين المنحدرين من جنوبي الجزيرة– شيعيا.

أما معلوماتنا عن أجداد المتنبي لأمّه فأقل أيضا، فلا يزال اسم التي أعطت الحياة لشاعر من أكبر شعراء الأدب العربي، مجهولا حتى نكاد نخمن بأن تلك المجهولة همدانية من أسرة كريمة في الكوفة، وكانت همدان من قبائل جنوبي الجزيرة العربية. نزل فريق منهم العراق عند الفتح الإسلامي. ويبدو أن الحسين كان متخلف المعيشة، وكان يقطن وامرأته وحماته في حي من أحياء كندة في الجانب الشرقي من الكوفة، وكان الحسين يسقي الماء على بعير يحمل قربتين ترشحان الماء، مما دعا أهل بلده إلى تقليبه بعبدان السقاء. لم يرزق الحسين من زوجه إلا ولدا واحد وذلك حوالي 303هـ، فأسماه أبو أحمد ولقبه بأبي الطيب، وكان هذا اللقب شائعا يومئذ بين الناس، ثم ألحق باسمه نسبة الجعفي إشارة إلى أصله، والكندي نسبة إلى حي كندة الذي نزل فيه. ويبدو أن أبا الطيب لم يعرف أمه (ولعل هذه ماتت بعد ولادته) فربته جدته لأمه وهي التي غرست في قلبه حنانا لم يضعفه مرور الأيام، وكانت أفكار المتنبي تتجّه في ساعات المحن، إلى جدته التي أقامها مقام أمه، كانت جدته معروفة بأنها من صلحاء النساء الكوفيات[2].

وأخذ أبو الطيب في وقت مبكر، يتميز عن رفاقه ذكاء ورصانة وميلا للدرس، فاختلف، بالرغم من حال أهله المتواضعة إلى "كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة" ولا ريب في أنه تحمل تلك المضايقات التي يلقاها تلميذ فقير ضائع بين رفاقه الأغنياء. ولعل في هذا

([1]) ريجيس بلاشير، **أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي**، تر الدكتور ابراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:04، سنة 1988، ص39، 40.

([2]) المرجع نفسه، ص40، 41.

اللقاء الأول مع الناس، وإن كنا لا ينبغي المبالغة في أهميته، منشأ نفور أبي الطيب من البشر (1).

وبعد أن حدثنا بلاشير –المستشرق الفرنسي المعروف– عن طفولة المتنبي البائسة، التي جعلته نافرا من الناس كارها لهم، إن اعتقدنا ناصحة هذا الاستنتاج ووجهاته استطعنا القول: إنه بالرغم من الأصل الوضيع فقد تسامى أبو الطيب محلقا كطير الهواء، وترفع عن ذكر نسبه وقبيلته واستعاض منهما بخلال نفسه وجلال أعماله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي　　　　وبنفسي فخرت لا بجدودي(2)

يقول الدكتور فوزي عطوي عن المتنبي الإنسان:

كان والده سقاء في الكوفة، يحمل الماء على جمله ويوزعه على الناس، فعرف باسم "عبدان السّقاء" وكل ما نعرفه عن هذا الوالد أنه ينتسب إلى "جعفي" وأن زوجته، أم المتنبي تنتسب إلى "همدان" وهما حيان من أحياء العرب في بلاد اليمن. ولا نستطيع أن نستخلص من "ديوان المتنبي" أكثر من هذه المعلومات عن نسبه، ولربما كان مرد ذلك إلى إيمانه بنفسه، وثقته بشخصيته وغروره بمقامه الذي يزين له أنه أفضل من الناس والملوك، وحتى من الأنبياء، أليس هو القائل:

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا　　　　بأنني خير من تسعى به قدم

وربما كان مرد تجاهل الشاعر لأبيه وجده، وعائلته إلى أنه كانت يعتبر الفضائل الإنسانية كلها تجمعت في شخصه، من فروسيه، وبطولة، وشجاعة وفكر وشعر:

الخيل والليل والبيداء تعرفني　　　　والسيف والرمح والقرطاس والقلم(3)

المتنبي في البادية مع الأعراب:

إلا أن المؤرخين تركوا لنا معلومات قيمة عن بعض جوانب حياة الشاعر العظيم، قالوا إنه كان يرافق أباه إلى البادية، حيث جاور الأعراب وخالطهم، وأتقن اللغة والأدب،

---

(1) ريجيس بلاشير، المرجع السابق، ص42.

(2) الشيخ ناصيف اليازجي، مرجع سابق، ص:140.

(3) فوزي عطوي، **المتنبي شاعر السيف والقلم**، دار الفكر العربي، بيروت، ط3، سنة2004، ص:14،13.

فضلا عن طبيعة البادية القاسية التي شحذت طباعه، وهيأت له شخصية قادرة على تحمل المصاعب والشدائد. واتفق المؤرخون على الإشارة إلى الروح الوثابة القلقة التي كانت تضجّ في جنبات المتنبي، فلا يقر لها، ولا له، أي قرار، حتى ليصور الشاعر نفسه مقلقلا، ولكن متحكما بمصائر الأمور:

على قلق كأن الريح تحني أوجّهها جنوبا أو شمالا[1]

ولكن، ما سر هذا القلق الذي لازم الشاعر ملازمة الظل لصاحبه؟ لم يدعنا الدكتور فوزي عطوي في حيرة فأجابنا بقوله:

إنه المجد العظيم الذي تشهّاه، طفلا، وهو يعاني من البؤس والفقر والحرمان، مرارة ما بعدها مرارة، ثم إنه المجد العظيم الذي تطلّع إليه فتى خفاق الجناحين، وأغمض عينيه على حرقته إنسانا تضج في شخصيته معاني الرجولة، والنضوج الفكري.

لقد كان المتنبي يطلب المجد، منذ نعومة الأظافر، فسلك إليه ثلاثة مسالك، أخفق في كل منها على التوالي:

حاول بلوغ المجد بواسطة الشعر، فامتدح الملوك والوزراء والقضاة، ودانت له الروائع من القوافي، والغوالي من الأوزان، غير أن الشعر لم يوصله إلى مبتغاه. وكان من حسن حظ الأدب العربي عامة أن يكون الشعر قاصرا على احتواء مطامح الشاعر، ولو أنه احتواها، لما كان للعصر العباسي أن يفخر بلؤلؤة في تاجه الفكري، تتمثل في عبقرية المتنبي[2].

ثم حاول بلوغ المجد والقوة، وأعلن الثورة، بعد أن ادعى النبوة في بادية السماوة، على ما يذهب إليه بعض المؤرخين، فتبعه خلق كثير من بني كليب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص، نائب الأخشيديين فأسره وتفرق أصحابه، وحبسه طويلا، ثم استتابه فأطلقه. ويروى أن المتنبي اعتذر إلى لؤلؤ، مبررا فعلته بصغر سنه، وعدم اكتمال نضوجه، فقال:

دعوتك لمّا براني البلاء وأوهن رجليّ ثِقلُ الحديد

تُعجّل فيَ وجوب الحدود وحدّي قُبيْل وجوب السجود

وحاول المتنبي أخيرا إدراك المجد بالمال، فطوف في بلدان كثيرة، بدأ من بغداد إلى الشام، فطبرية، فحلب فمصر فشيراز، ثم عاد إلى بغداد، وجمع الأموال الطائلة،

(1) فوزي عطوي، مرجع سابق، ص:14.

(2) المرجع نفسه، ص:14.

وذاع له صيت حميد، وكان كلما كسب دينارا يسعى إلى كسب دينار جديد، لأن المجد صنو المال، في رأيه، ولأنه لا يجمع المال، رغبة فيه، بل رغبة في تحقيق المفاخر والمعالي:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

وما رغبتي في مغنم أستفيده ولكنها في مفخر استجده[1]

ورغم ما يتصف به المتنبي من أنفة شديدة وكبرياء قوية ظاهرة في حب السيادة، والترفع عن الدنايا، واحتقار الغير، والرغبة في مساواة الملوك والأمراء –كما سنرى في مبحث الأنا المثالية المتعالية– وهي عواطف سامية ترافق الشاعر في كل حياته، فتبدو في أعماله وتصرفاته جميعا، وتظهر في كل قصيدة نظمها سواء المدح والهجاء والفخر والحكم، وقد رأينا في حياته الشواهد العديدة على هذه العظمة الفطرية، إلا أنه يتصف بالبخل، وبلغ درجة الأستاذية فيه، ولهذه الصفة قصة يرويها لنا الأديب اللبناني فؤاد أفرام البستاني عن أبي بكر الخوارزمي:

ومن غريب صفات المتنبي، التي لا تنطبق على أخلاقه من حب السيادة، والترفع عن صغائر الأمور، ولا تتفق مع شعره الملآن بالعواطف السامية واحتقار الماديات؛ الرغبة في الحرص، وشدة البخل، حتى ضربت بشحه الأمثال، وتنوقلت عنه نوادر في هذا الباب مضحكة، غريب صدورها من رجل كالمتنبي، وهو ما دفع ابا بكر الخوارزمي إلى القول: "كان المتنبي قاعدا تحت قول الشاعر:

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال، ويبخل

وقال أبو بكر: "حضرت عنده يوما بحلب وقد أحضر مالا من صلات سيف الدولة. فصب بين يديه على حصير قد افترشه، ووزن وأعيد في الكيس، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير، فأكب عليها بمجامعه، ينقرها ويعالج استنقاذها منه، ويشتغل بذلك عن جلسائه، حتى توصل إلى إظهار بعضها، فتمثل ببيت قيس بن الخطيم:

تبدت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجب منها، وضنّت بحاجب

ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس، فقال بعض جلسائه:

([1]) فوزي عطوي، مرجع سابق، ص:15.

أما يكفيك ما في هذه الأكياس، حتى أدميت أصبعك لأجل هذه القطعة؟

فقال: إنها تحضر المائدة[1].

على أن للمتنبي عذرا في الإفراط في الحرص، قد يكون مشروعا في نظر من ذاق لوعة الفقر، فاحتقر، وكان ذا نفس كبيرة كنفس المتنبي.

وقد ليم شاعرنا في تصرفه المعيب، وحرصه الشائن، فقيل له:

قد شاع عنك البخل في الآفاق حتى صار مثلا، وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذم البخل، ألست القائل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر، فالذي فعل الفقر

ومعلوم أن البخل قبيح، ومنك أقبح لأنك تتعاطى بر النفس، وعلو الهمة، وطلب الملك، والملك ينافي سائر ذلك!

فاقل: إن للبخل سببا! وذلك أني اذكر وقد وردت، في صباي، من الكوفة إلى بغداد، فأخذت خمسة دراهم في جانب منديلي، وخرجت أمشي في أسواق بغداد، فمررت برجل يبيع الفاكهة، فرأيت عنده خمسة من البطيخ، باكورة، فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي، فقدمت إليه، وساومته ثمنها. فقال لي بازدراء: اذهب، فليس هذا من أكلك. فتماسكت معه، وقلت: أيها الرجل، دع ما يغيظ، واقصد الثمن. فقال: ثمنها عشرة دراهم. فلشدة ما جبهني لم استطع أن أخاطبه في المساومة. فوقفت حائرا، ودفعت له خمسة دراهم، فلم يقبل وإذا بشيخ من التجار قد مر بنا، فوثب إليه صاحب البطيخ، ودعا له. وقال: يا مولاي، ها بطيخ باكورة! أحمله إلى منزلك. فقال الشيخ: ويحك! بكم هذا! فقال: بخمسة دراهم، فقال الشيخ: بل بدرهمين. فباعه الخمسة بدرهمين، وحملهما إلى داره، ودعا له، وعاد فرحا مسرورا. فقلت: يا هذا! ما رأيت أعجب من جهلك، استمت عليّ في هذا البطيخ، وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم؛ فبعته بدرهمين محمولا؟ فقال: اسكت! هذا يملك مائة ألف دينار فقلت في نفسي: إن الناس لا يكرمون أحدا إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة ألف دينار واعتمدت أن يكون

---

[1] – فؤاد أفراد البستاني، **أبو الطيب المتنبي المدائح والأهاجي**، دار المشرق بيروت، ط:10 سنة 1973، ص: 18، 19.

عندي مثلها، فأنا أجدّ في ذلك على ما تراه، حتى يقولوا: إن أبا الطيب قد ملك ألف دينار "[1].

أما الأستاذ عباس حسن –أستاذ سابق بكلية دار العلوم جامعة الأزهر– فله رأي آخر في المتنبي، يحسن بنا أن نورده حتى تكتمل الصورة الاجتماعية لهذا الشاعر الظاهرة:

"أين المكارم والعلا ممن يطوف بالممالك والأقطار وراء المنح والاستجداء؟ وأين العدا ودماؤهم التي سالت على السيوف وقد خرج بليل هائما خائفا يترقّب؟

وأين الوفاء والإباء من رجل قُلّب، يسقط كما يسقط الطير حيث يلتقط الحب، لا يبالي بنزاهة الطعمة، ولا شرف المورد، ولا حل المتاع؟

وهذا المدعي المغرور هو المستجدي الصفيق الذي يستعطف الملوك والأمراء ليمنحوه ولاية أو ضيعة، بل هو الذليل المهين الذي ينسى العزة والكرامة في أيسر صورها، ليقف سائلا مادا يده إليهم كي يمنحوه بعض المال، بل مادا يده إلى سيف الدولة الذي ضربه بالدواة في وجهه حين كان ينشد قصيدته التي مطلعها:

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم..

فلم يغضب للضربة، ولم يثر للكرامة والعزة، بل قال:

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فما لجرح –إذا أرضاكم– ألم

فرضى عنه سيف الدولة، وأرضاه بألف دينار، ثم ألف. فأنسته الدنانير كل شيء وقال للأمير:

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفا على ألف

أشبهها فعلك في فيلق قلبته صفّا على صفّ

وهو بخيل غاية البخل، حريص على المال أشد الحرص، يجود بحيائه وإبائه في سبيل الوصول للدرهم ثم يحرم على نفسه إنفاقه، وقد يرتكب أكبر الجرائم في سبيل الاحتفاظ به، وهل أدل على ذلك من أن يقتل غلامه لأنه سرق بعض ماله.

([1]) فؤاد أفرام البستاني، مرجع سابق، ص:19–20.

وقد بقي من أخلاقه السّيئة أنواع أخرى كالجبن، وعدم العناية بنفسه، ومظهره، ولاسيما نظافة ثيابه، وتلك عيوب تمالأت عليها الروايات والأخبار؛ كما حملت إلينا أنه كان لا يصوم، ولا يصلي ولا يقرأ القرآن"[1].

ونقول في نهاية هذا المبحث –الحياة الاجتماعية– إن المتنبي أحب العظمة، وعشق السيادة فهام على وجهه يطلب كل شيء ولا يدري ماذا يريد، نادى بنفسه نبيا فخاب سعيه وباء بالفشل، ثم انصرف إلى الولاية متوسلا مستعطفا الملوك، ومرد ذلك إلى ما كان يحز في أعماق نفسه من ضعة في نسبه، فعمل جهد استطاعته على رد اعتبار نفسه، تلك النفس التي آثرت القوة والعظمة، والعلم والرأي على الحسب والنسب.

([1]) عباس حسن، **المتنبي وشوقي دراسة نقد وموازنة**، دار المعارف بمصر، ط1 سنة 1964، ص: 341، 342، 345.

ثانيا: الحياة السياسيــة:

عاش المتنبي في عصر أصبحت في فيه الدولة العباسية متفرقة الكلمة ضعيفة الجانب، تتجاذبها تيارات مختلفة تبشر بالزوال والانقراض، فانفرد الولاة بالأمصار، وأسسوا دويلات جديدة، ثم جمعوا إلى بلاطاتهم الشعراء والأدباء، وأغدقوا عليهم الأموال، حتى غالى الشعراء في مدحهم وإعطائهم النعوت التي تفوق عظمة السماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار، فانحط شعرهم إلى الدرك الأسفل من القول لما فيه من زيف العاطفة وغدر الرياء، وكان من الطبيعي أن ينغمس المتنبي في هذه البوتقة فيمدح مغاليا ويهجو متشفيا مستغلا التجاذبات السياسية وضعف سلطان الدولة المركزية. وللدكتور طه حسين أن يرسم لنا صورة الوضع السياسي الذي نشأ فيه المتنبي:

ولد المتنبي في بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين. كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر، ولم يكن الدم وحده يصبغها، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكرا من سفك الدم، هو النهب والسلب، واستباحة الأعراض، وانتهاك الحرمات، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين أضف إلى هذا الشر كله شرا آخر سياسيا جنسيا، إن صح هذا التعبير، وهو أن الأمة العربية التي أقامت هذا الملك الضخم، وشيدت هذه الحضارة المزدهرة، قد غلبت على أمرها وطردت من مستقر سلطانها؛ فانحاز إلى الشام والجزيرة منها ما انحاز، وخضع للذل من أقام في العراق، ودفع إلى الجهالة والبداوة منها ما انحاز إلى جزيرة العرب وأقام فيها، وتسلط الغلمان والرقيق والمغامرون من الخدم وأشباه الخدم على الملوك والأمراء والخلفاء يعبثون باسمهم ويبطشون بسلطانهم ويظلمون دون أن يردعهم رادع أو يوزعهم وازع أو يصدهم عن ذلك صاد.

ملك عظيم ينقص، وسلطان هائل ينهار، وقوم يتهالكون على فتات ذلك الملك، وأنقاض ذلك السلطان، فإذا ولد في هذه البيئة صبي ذكي القلب، مرهف الحس، رقيق المزاج، حاد الشعور، ملتهب العاطفة، قوي الخيال، كان من الطبيعي أن يسير السيرة التي تكون منه هذا الشخص الذي يُعرف بالمتنبي[1].

بعد أن نقلنا تلك الصورة الكئيبة عن الوضع السياسي العباسي، ننقل صورة أخرى لا تقل كآبة عن التي رسمها طه حسين، هي كئيبة حقيقة من حيث تآكل الخلافة وضعف

([1]) طه حسين – **مع المتنبي**– دار المعارف بمصر، ط:09 (د.ت)، ص:32.

سلطانها، ولكن في مقابل ذلك هي أرض خصبة لكل الطامعين والطامحين إلى تحقيق المآرب السياسية، وعلى رأسهم شاعرنا المتنبي الذي غادر الحياة وفي قلبه شيء من الإمارة السياسية، أما الإمارة الشعرية فقد حققها بامتياز. والصورة التي نود نقلها هي للدكتور ريجيس بلاشير، يقول: كانت الحالة السياسية في الشام حوالي سنة 321م مواتية لتنفيذ خطط أبي الطيب، فقد فتح نهائيا مقتل الخليفة المقتدر، أثناء السنة السابقة، أبواب عهد من الاضطرابات في المملكة وجدت فيها أقاليم الولايات ومطامع الحكام المحليين مرتعا خصبا، وكان الأمير التركي محمد بن طغج، الملقب بالأخشيد قد جمع بين يديه منذ عدة سنوات إدارة الشام وفلسطين، وكان في الواقع نائبا حقيقيا للملك، ويبدو أن الاضطرابات في بغداد كانت تساعد على امتداد سلطانه إلى شمالي سوريا، وكان من الطبيعي أن يحلم الطَّمُوحُ المتنبي بأن يحقق لنفسه ما توصل غيره إلى تحقيقه[1].

نشأ المتنبي في الكوفة نشأة علوية يختلف إلى الكتاتيب ودور الوراقين كما يختلف إلى العلماء ومجالس العلم والأدب، وفي سنة 925م استولى القرامطة على الكوفة ففر المتنبي مع ذويه إلى بادية السماوة –وهي أرض بجبال الكوفة ما يلي الشام– فصحب الأعراب ثم عاد إلى الكوفة عربيا صرفا، واتصل بأبي الفضل الكوفي أحد أتباع المذهب القرمطي، فأشربه مبادئ القرمطية، وهكذا كان المتنبي علوي النشأة، اسماعيلي المذهب، قرمطي النزعة. وفي الثامنة عشرة من عمره غادر العراق إلى الشام يطلب المجد والرفعة ويحقق بعض أهداف الإسماعيلية والقرامطة في قلب نظام الحكم، وفي إزالة ملك الفاسدين والمفسدين، وكانت بلاد الشام إذ ذاك موضع منازعات جديدة استقر فيها سلطان الإخشيد إلى أن ظهر سيف الدولة الحمداني واستولى على حلب سنة 944 وبقي الإخشيديون في دمشق، وشجع أبا الطيب في مغامراته ضعف السلطان المركزي في بغداد وتفكك أوصال الخلافة العباسية، وانفتاح الأبواب الواسعة في وجه رجال الطمع والطموح فنصب نفسه داعية من دعاة الإسماعيلية وكان من ثم نبيا من أنبيائها[2].

وراح يبث الدعوة بين أعراب السماوة، فكان له ما أراد، وسار الأعراب وراءه جيشا رهيب الجانب، قال الخطيب البغدادي "إن أبا الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى

([1]) ريجيس بلاشير، مرجع سابق، ص85.

([2]) حنا الفاخوري، **الجديد في الأدب العربي وتاريخه**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط5 سنة 1963، ج:6، ص826، 827.

أنه علوي حسيني، ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدّعويين، وحبس دهرا طويلا، وأشرف على القتل، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق" وجاء في الصبح المنبي أن أبا الطيب قصد اللاذقية بعد نيف وعشرين وثلاث مائة، فأكرمه معاذ ثم قال له: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فقال: ويحك! أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل، ثم تلا عليه جملة من قرآنه وهو مائة وأربع عشرة عبرة، فبايعه معاذ وانتشرت بيعته في بلاد الشام، ثم إنه لمّا شاع ذكره، وخرج إلى حمص قبض عليه ابن علي الهاشمي وأمر بأن تجعل في عنقه ورجليه خشبتان على الصفصاف.. ومهما كان شأن هذه الرواية فقد ثبت لدينا أن أبا الطيب عدّ نفسه داعيا اسماعيليا، أي نبيا وأنه اعترف بنزعته القرمطية، وأنه مر بالسلمية مقر الإسماعيلية إلى يومنا هذا، واحتك فيها برجال المذهب احتكاكا وثيقا، وأنه نشب هنالك خلاف بين الشاعر وابن علي الهاشمي لسبب لا نعرفه على حقيقته، وقد يكون لتطرف في آراء أبي الطيب، أضف إلى ذلك أن لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيدية خرج إلى الشاعر، فقاتله وأسره، وشرد من اجتمع إليه من كلب وغيرها من قبائل العرب، وحبسه في السجن سنتين، ثم استتابه وأطلقه، وإن من تتبع شعر المتنبي في هذه الفترة من حياته لمس الأثر الإسماعيلي في عنفوانه وهذا الأثر نلمسه كذلك في مختلف أطوار ذلك الشعر وإن تضاءل فيه العنفوان القرمطي، قال يمدح رجلا ويستكشفه عن مذهبه:

يا أيها الملك المصفي جوهرا — من ذات ذي الملكوت أسمى من سما

نور تظاهر فيك لاهوتيُّه — فتكاد تعلم علم من لن يعلما

كبر العيان علي حتى إنه — صار اليقين من العيان تَوَهُّما

فتصفية الجوهر هي التصوف العقلي عند الإسماعيلية، ومن التصفية هذه اتخذ "إخوان الصفاء" الإسماعيليون اسمهم[1].

ولمّا تفلّت المتنبي من أسْرِ لؤلؤ راح يضرب في البلاد الشامية، واجتاز الجزيرة مارا برأس عين، وانتهى إلى منبج حيث مدح جماعة من رؤساء العرب في روح عربية ودعوة إلى العروبة

وإنما الناس بالملوك، وما — تفلح عرب ملوكها عجم

([1]) حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص: 827، 828.

ثم غادر منبج إلى غيرها مواصلا مذهب المدح والإطراء وهو لا يجد إلا خيبة الأمل ولا يحمل إلا ثورة النفس تذكيها الكبرياء، ويبلغ عدد الذين تقرب إليهم في تلك الأثناء اثنين وثلاثين رجلا مدحهم بأربعين قصيدة. وهكذا كان المتنبي يسعى لآماله سعي المجد، فلقد هم بالثورة وترقب لها الفرص؛ ثم سكت عن أشباه ذلك بعد أن بارح عتبة الصبا، وأوغل في سني الرجولة الحكيمة، فتركزت آماله في عقله الباطن، وراح يعمل على تحقيقها في هدوء ويقين وثقة بالنجاح وقد استمر يُمنّي النفس ويبسط أمامها سبيل الأمل الباسم الخلاب حتى قتل الزمان هذا الأمل في رأسه وخياله، فآب صامتا محتملا يشكو لنفسه مطل الزمان، ولا يشكو لبني الإنسان، فهو يراهم دونه بكثير.

وكان المتنبي في سعيه متعاليا على الناس، شديد الاعتداد بنفسه والإيمان بحقه على أهل زمانه، كثير المغالاة فيما يقول من مدح وفخر وثورة على سنّة الإسماعيلية التي قامت على أساس من الغُلوّ الشديد. وما إن طار صيت الشاعر حتى رغب في مدائحه الأمراء والحكام، وتنافسوا في دعوته إليهم، اتجه إلى سيف الدولة أمير حلب، أعجب سيف الدولة بشعر أبي الطيب فأراده على الانضمام إلى بلاطه فقبل على ألا ينشد الأمير وهو واقف وألا يقبل الأرض بين يديه. فدخل الأمير تحت هذه الشروط، ومنذ ذلك الحين أصبح المتنبي شاعر سيف الدولة وأقام عنده تسع سنوات (948م-957م) نظم في أثنائها ثمانيا وثلاثين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة، وحسن موقع الشاعر عند الأمير وأحبه وقربه، واستصحبه إلى الحروب والغزوات المختلفة مما أَوْغر صدور سائر الشعراء والعلماء حقدا عليه وغيرة منه، ولاسيما وأن المتنبي رجل كبرياء وتعال، وصاحب مذهب إسماعيلي وآراء متطرفة، فراحوا يفسدون ما بينه وبين وليّ نعمته، إلى أن تم لهم ما أرادوا وأخرج الشاعر من بلاط حلب مغضبا[1].

لقد غالى المتنبي في مدح الملوك شأنه في ذلك شأن شعراء عصره الذين امتازوا بهذه المغالاة في المدح، إلا أن مدائح شعارنا في سيف الدولة فقد كانت تصدر عن شعور عميق وولاء وعرفان بالجميل، حتى كاد المتنبي أن يغض طرفه عن الولاية التي صبا إليها في فجر شبابه، وأغلب الظن أنه ما كان يفكر في مغادرة حلب لو لم يمعن

(1) حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص: 830، 831.

الحساد في طعنه وجرح كبريائه وتعكير صفو هنائه، ونريد أن نواصل مع المتنبي وهو في رحلته السياسية إلى مصر حيث كافور.

المتنبي في مصر: [1]

كان كافور من أقدر رجال عصره سياسة ودهاء، وكان إلى ذلك محبا للعلم والعلماء، ومبسوط اليد في الهبات والصدقات. فقصده أبو الطيب سنة 957 ولقي لديه كل حفاوة إذ أخلى له أبو المسك دارا وكفله وأضافه وخلع عليه، وقد خصه بأن يدخل عليه وفي وسطه سيف ومنطقة، ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، وكان هدف أبي الطيب أن ينال من كافور إمارة، فلم ينل إلا وعدا ولم يتم، وأملا لم يكلل بالنجاح، وعوتب كافور في ذلك فقال: "يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم، أما يدعي المملكة مع كافور؟".

ولما طال انتظار المتنبي في غير جدوى سعى في الرحيل عن مصر، وكان كافور يمسكه عن ذلك الرحيل ويبث حوله العيون. وقد أعد الشاعر كل ما يحتاج إليه على مر الأيام في لطف ورفق ولا يعلم به أحد من غلمانه، وهو يظهر الرغبة في المقام، وفي ليلة عيد الأضحى قال الشاعر قصيدته:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وانتهز غفلة كافور وانشغاله بالعيد وانسل في ظلمة الليل يريد الكوفة. ولما نمى إلى كافور خبر رحيله غضب وأرسل في أثره من يقتله خشية لسانه، ولكن شهرة المتنبي وشجاعته أنجتاه من غدر الغادرين، فوصل إلى الكوفة في شهر ربيع الثاني سنة 351هـ/962م.

(1) ينظر: الجديد في الأدب العربي، حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص: 831، 832، 833.

في العــراق:

كان العراق عندما وصل إليه المتنبي تحت سلطان بني بويه، فتقلب ما بين الكوفة وبغداد، واشترك في رد غزوة بني كلاب عن الكوفة، إلا أنه ترفع عن مدح المهلّبي، وزير بني بويه فأغرى به جماعة من شعراء بغدداد نالوا من عرضه وتبارزوا في هجائه، فلم يجبهم المتنبي ولا حفل بهم. وقد التف حوله جماعة من علماء اللغة والنحو كعلي البصري، وابن جني فشرح لهم ديوانه واستنسخهم إياه. ولما سمع سيف الدولة بخروج أبي الطيب من مصر أراده على الرجوع إلى حلب، وأرسل إليه الهدايا، وفي تلك الأثناء توفيت خولة أخت سيف الدولة الكبرى فقال الشاعر فيها قصيدته

يا أخت خير أخ يا بنت خير اب   كناية بهما عن أشرف النسب

أُجِلُّ قدرك أن تسمي مؤبّنــة   ومن يصفك فقد سماك للعرب

وكان لهذا الرثاء أبلغ الأثر في نفس سيف الدولة، فأرسل إلى الشاعر هدية ومالا وأمانا بخطه وكتابا يستدعيه، فكتب المتنبي قصيدته:

فهمت الكتاب أبر الكتــب   فسمعا لأمر أمير العرب

ولكنه لم يتوجه إلى حلب عنادا وتكبرا، ثم لِمَا بلغه من أخبار سيف الدولة ومرضه وتوالي النكبات عليه وعلى سلطانه(1).

وخلاصة القول، في هذا المبحث، أن المتنبي شاعر اختلف في مدحه عن سائر الشعراء، هم أرادوا الحصول على المال وهو أراد الولاية، هم طلبوا الحياة الرغيدة والعيش الموفور قانعين بما أصابهم، ونادى هو بالجاه والعظمة والملك، هم تزلفوا في مدائحهم فانحط قولهم، وألّحوا في الطلب فغدوا آلة في يد سيدها يديرها كيف يشاء، أما هو فقد تكسب وطلب ولكن بشمم وإباء وأنفة وكبرياء لا يعرف الضعف والهوان ولا اللين والاستسلام لليأس والقنوط

وفي الجسم نفس لا تشيب بِشَيْبِه   ولو أنّ ما في الوجه منه خراب(2)

لقد سبق وقلنا إن المتنبي مدح سيف الدولة مدحا صادقا لأنه يرى فيه نفسه؛ أما سيد مصر فلم يأته إلا ابتغاء الولاية والحكم، ولم يكن ليخفى على كافور أن المتنبي لم يمدحه حبا فيه بل ليستعين على خصومه وحساده، لذلك اجتمعت المصلحتان: حاجة

(1) حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص: 833، 834.

(2) ديوان المتنبي، ص:44.

كافور إلى المتنبي لينافس به سيف الدولة خاصة وسائر الملوك عامة، وحاجة المتنبي للولاية ليدحض مزاعم الأعداء ويشمخ عليهم، ولكنه ترك مصر خائبا يسير في القفار ويضرب في الوهاد ونفسه أبدا شابة قوية لا تقف عند حد.

ثالثا: الحياة الثقافيـة:

دعا الإسلام أهله إلى العلم والتعلم، فبمجرد أن فتح المسلمون العراق وفارس والشام ومصر أخذوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف التي كانت منبثة في هذه البلدان، وأعانهم في ذلك أنهم عربوا تلك الشعوب وأخذت بنفسها تعرب لهم كل كنوزها الثقافية، ولم يمض على الأمة إلا زمن يسير حتى تكون قد دخلت العربية سيول ثقافية وعلمية لا حصر لها، مما مكن العرب والمسلمين أن يتحولوا سريعا إلى أمة علمية، وحتى يكون لِكَلاَمِنَا منا سند علمي نمضي فيه مستصحبين الدكتور بلاشير وهو يصور لنا الحركة الثقافية في القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه شاعرنا المتنبي، يقول: "وأخذ الإلحاد والمادية في القرن الرابع الهجري يثبتان وجودهما دون مواربة، وقد امتدا، كما يبدو بتأثير من القرمطية إلى أكثر الطبقات تنوعا في المجتمع حتى إن جمعية سرية من إخوان الصفاء تعهدت في سلسلة من المؤلفات التعليمية، تبسيط علم مستمد من العقائد القرمطية مباشرة، واحتفظ الأدب العربي بآثار من تلك المواقف منها قول شاعر:

تلوم علي ترك الصلاة حليلتـي فقلت: اغربي عن ناظري أنت طالق
فوالله لا صليـت لله مفلسـا يصلي لـه الشيخ الجليل وفائـق
وصاحب جيش المشرقين الذي له سراديب مال حشوها متضايـق
لماذا جيش المشرقين الذي لـه سراديب مال حشوها متضايـق
لماذا أصلي؟ أين باعي ومنزلي؟ وأين خيولي والحلى والمناطـق؟
أصلي ولا فتر من الأرض يحتوي عليه يمني؟ والحلى والمناطـق؟
أصلي ولا خير من الأرض يحتوي عليه يميني؟ إنني لمنافــق
تركت صلاتي للذين ذكرتهـم فمن عاب فِعْلي فهو أحمق مائـق

وافتخر شاعر آخر بأنه غير دينه مرات كثيرة في حياته، وقد عبر فيما بعد الشاعر المشهور أبو العلاء المتوفي 449هـ في صيغ شعرية دالة على خيبة الأمل، عن ارتيابية الكثيرين من معاصريه ليس تجاه الإسلام فحسب بل النصرانية واليهودية أيضا[1].

يواصل بلاشير:

([1]) ريجيس بلاشير، مرجع سابق، ص: 14، 15.

ومن التضاد المدهش، ولكنه الكثير الحدوث في التاريخ أنه في اللحظة التي كان فيها سلطان العباسيين آخذا في الزوّال، وحين كانت القرمطية تحرض طبقات الشعب الدنيا على الثورة، كانت الفعالية الفكرية والفنية مازالت متألقة جدا في الشرق.

وفي الواقع إن حماية الأدب والفن التي ولدت، إذا صح التعبير، مع الأدب العربي، أصبحت دُرْجَة "Mode" ينبغي الخضوع لها حذر السقوط من عيون الناس، فقد خصص أحد وزراء المقتدر بالله للشعراء سنويا مبلغ عشرين ألف دينار ذهبا يضاف إليها هبات عينية، وكان أصغر برجوازي في بغداد والبصرة أو الكوفة ينشئ منتدى أدبيا، وحَسْبُ الإنسان أن يكون مثقفا أو لَسِنًا لكي يقبل في تلك المنتديات. ففي الوقت الذي استقلت فيه أجزاء المملكة المختلفة فقدت بغداد مكانتها، بوصفها عاصمة فكرية، تلك المكانة المدينة بها إلى وضعها السياسي، فنزعت كل ولاية جديدة بدافع من مؤسسها إلى مماثلة عاصمة الخلفاء، وفي أواخر النصف الأول من القرن العاشر أنشئ مركزان جديدان، أحدهما في مدينة شيراز بفارس حيث خضع بعمق شديد للتأثيرات الفارسية والآخر في مدينة حلب بالشام وهو عربي في جوهره فسطع على الولاية كلها كاسفا دمشق حتى بغداد. وجعل الأمراء من حماة الأدب والفن جذب النخبة من الفنانين والأدباء والشعراء إلى بلاطهم قضية شرف. ولم تكن هباتهم المبذولة بدافع الغرور أو الولع بالكلام الفصيح أو السياسة أيضا.

إن الشعراء الذين ولدوا في أوساط الشعب، وأعني غالبيتهم تقريبا، شعروا تماما بوجوب الاعتماد على الكبراء أو الأغنياء في استغلال موهبتهم الشعرية، وقد كابدوا والحق يقال، منذ زمن بعيد، وطأة هذا القانون، فأضحت تبعية الشعراء واقعا لا جدال فيه، سواء أكانوا في ذلك العهد أمراء قبائل مترحلة مثل عمرو بن كلثوم أو زهير بن أبي سلمى، أم رؤساء صعاليك مثل عروة بن الورد، أم قادة حروب مثل عنترة العبسي، أم مداحي صغار الملوك العراقيين و الساميين كالنابغة الذبياني فإنهم خضعوا جميعا للتبعية ذاتها، وكانوا مرتبطين بعشائرهم ومجموع اجتماعي أو سياسي يهدون إليهم أشعارهم لقاء نعمة و هبة أو رتبة[1].

([1]) ريجيس بلاشير، مرجع سابق، ص: 15، 16، 17، 18.

وتبدو سيرة الشاعر المهنية في القرن الرابع الهجري مخططة مقدما تبعا لقواعد تقليدية تصعد إلى ماض سحيق ويمكن القول، على أبعد تقدير، إنه على أثر انتشار الثقافة الأدبية، وإنشاء مراكز فكرية جديدة ازدادت حينئذ تبعية الشاعر خطورة من جراء المنافسة بين الفنانين، تلك المنافسة التي أدّت إلى أسوء التنازلات.

كان لشعراء القرن الرابع الهجري، نتيجة ذلك، بشهوة المتع المادية، ووسواس البؤس، وخشية منافسة الخصوم المجدودين غاية هي، تبعا للأمزجة غاية طفيلي ورجل بطانة، وكان حلم هؤلاء الشعراء العثور على حام مستنير وكريم يؤمن من لهم بإدراكه فضلهم، الغنى والمجد، إنهم ينتقلون جميعا من باب حام للأدب إلى باب حام آخر، مطيلين أو مقصرين مكثهم عنده تبعا للاستقبال الذي أعد لهم، وقد يحظى بعضهم والحال هذه، بالاستقرار طوال سنين، فيبدؤون عندئذ حياة البلاط أو حياة (المنتديات) Salon إنها لحياة حقيرة مثيرة للسخط تلفها المكايد وخلافات جماعات الدساسين، ويظل هذا شأنهم إلى أن يفقد الشاعر الحظوة، إما بسبب غلبة الخصوم أو موت حامي الأدب والفن، فينبغي عندئذ نشدان سند آخر، وتبقى الحال على هذا المنوال دون تراخ حتى يوافي الشاعر حمامه[1].

بعد هذه الصورة القائمة عن التاريخ الإسلامي والقرن الرابع خصوصا، التي قدمها بلاشير وكأنها مشهد لبستان كله أشواك، ولا وجود ولو لزهرة واحدة تستميل القارئ وتستهويه، فالمشهد كما يرسمه دسائس واضطرابات وانحرافات وفساد عقائد، وشعراء يقرعون على الملوك الأبواب ويتمسحون على الأعتاب، لا شرف ولا همّة ولا أنفة، وهذا ديْدن المستشرقين، والأمر إذا جاء من مصدره لا يستغرب، ولكن الذي يهمنا، ونريد بسط القول فيه هو ما حظ أبي الطيب المتنبي من كل هذا؟ وما محله من هذه الحياة الثقافية التي تمور بمختلف التجاذبات الفكرية والعقائدية؟ يقول موهوب مصطفاي:

ترعرع أبو الطيب بالكوفة مهد الشيعة واختلف إلى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعرا ولغة وإعرابا فنشأ في خير حاضره وقال الشعر صبيا، وهكذا تعلم القراءة والكتابة فلزم أهل العلم والأدب. ثم خرج إلى البادية فصحب الأعراب وعاد بعد سنين إل الكوفة بدويا قحًّا ولا شك أن ذلك مكنه من التضلع في اللغة العربية حتى

([1]) ريجيس بلاشير، مرجع سابق، ص: 18، 19.

إذا سئل عن شيء استشهد بكلام العرب لكثرة اطلاعه على غريب اللغة، يقال أن أبا علي الفارسي قال له يوما: كم لنا من المجموع على وزن "فعلى" فقال له في الحال حجلى وظربى، قال الشيخ أبو علي الفارسي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لها ثالثا فلم أجد. ثم سمت نفسه إلى العلوم الأعجمية منذ صغره إذ اتصل بأحد متفلسفة الكوفة يكنى أبا الفضل فأخذ عنه الفلسفة وتعاليم الباطنية فاستطاع بذلك أن يطلع على مذهب القرامطة الذين كانت حركتهم ناشطة في عصره وقد أشار إلى ذلك صاحب خزانة الأدب بقوله:

وكان في صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضله كما ضل، وكانت عمدته كذلك على توسع ثقافته الإكثار من ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم، وقد أوتي حافظة قوية حتى اشتهر بحفظ كتاب يحتوي على ثلاثين ورقة في مدة جد قصيرة[1].

ولا شك أن قوة حافظته ساعدته أن يشارك أهل عصره من المثقفين الكبار أمثال الكتاب والوزراء في ثقافتهم الواسعة حتى يمدح ابن العميد بقوله:

من مبلغ الأعراب أني بعدها　　　شاهدت رسطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافني　　　من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه　　　متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما　　　رد الإله نفوسهم والأعصرا

غير أن أبا الطيب لم يجن من ثقافته الواسعة الأطراف المتنوعة الجوانب إلا سوء الاعتقاد ويرجع ذلك صاحب خزانة الأدب إلى اتصاله بأبي الفضل الكوفي الذي أضله كما ضل ثم أخذ يستشهد بأبيات من شعره تدل على تلونه في عقيدته ومذهبه، كما جاء في قوله:

هون على بصر ما شق منظره　　　فإنما يقظات لعين كالحلم

ويعني به مذهب السوفسطائية كما يدل قوله:

تمتع من سهاد أو رقاد　　　ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحاليْن معنى　　　سوى معنى انتباهك والمنام

(1) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص: 695، 696.

على مذهب التناسخ ويعبر بقوله:

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعاف ما لابد من شربه
فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجسام من تربه

عن مذهب الفضائية من الفلاسفة الماديين ويذهب في قوله:

فإن يكن المهدي قد بان هديه فهذا وإلا فالهدى ذا فما المهدي

مذهب الشيعة، ويختم صاحب خزانة الأدب هذه الأمثلة بقول الشاعر:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ألا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلد نفس المرء باقيـة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وينسبه إلى من يقول بالنفس الناطقة[1].

ويواصل مصطفاي:

ونرى أن المتنبي في بيتيه الأخيرين يحكي قولين أحدهما لأفلاطون والآخر لأبيقورس وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران.

فإن قول المتنبي: فقيل تخلص نفس المرء سالمة هو رأي أفلاطون في مصير النفس بعد الموت، إذ يقول الأستاذ فرنير "Werner" في ذلك: هكذا أفلاطون الذي وجد في موت سقراط ما يؤيده على ما ذهب إليه من خلود النفس متبعا في ذلك النظرية ومذهب الفيتاغورسيين الذين يرون وجوب تخلص النفس من علائق الجسم.

وأما قول الشاعر: وقيل تشرك جسم المرء في العطب فهو حكاية لقول أبيقورس الذي يزعم أن النفس مركب من المركبات الذرية وبذلك فهي ليست أقل عرضة للعطب من الجسم، إن دلت هذه الآراء المختلفة على سعة اطلاعه على المذاهب الفلسفية السائدة في عصره فهي تدل كذلك على أن الطبقة الرفيعة ترى من علامات التثقف العالي أن يكون صاحبه معتمدا على الفلسفة وآراء أصحابها، إذ يقول في مدح ابن العميد:

عربي لسانه فلسفـــي رأيه فارسية أعيـــاده

غير أن الفلسفة لعبت دورا كبيرا في انحرافات متعاطيها عن العقيدة الإسلامية كما لاحظ ذلك مصطفى عبد الرزاق في كتابه تاريخ الفلسفة إذ أخذت تنتشر المذاهب الفلسفية في الناس منذ أمر المأمون بتعريب كتبها ثم أيد ملاحظته بما ورد في الخطط إذا قال

---

(1) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص: 697، 698.

صاحبها: واشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والروافض والقرامطة والباطنة حتى ملأت الأرض وما منهم إلا من نظر في الفلسفة وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره فلم يبق مصر من الأمصار ولا قطر من الأقطار إلا وفيه طوائف كثيرة ممن ذكرنا[1].

إن أدب أي أمة هو نتائج عواطفها ومشاعرها وعقولها، وهو عصارة مزاجها النفسي، وطابع روحها، وهو في نفس الوقت مرتبط بهذه الأمة: أرضها وسمائها وقيمها وتقاليدها؛ ومن هنا كان الاختلاف والتباين بين أدب أمة وأدب أمة أخرى. والأدب العربي كان من المفروض أن يستمد وجوده من التوحيد والنبوة، والثقة بالله، والنظر إلى الكون بمنظار السماحة والتفاؤل والإيمان، وبين أدب آخر يستمد وجوده من بيئة تتصارع فيها الآلهة ويقتل بعضها بعضا، وتصارع الإنسان ويصارعها. ولكن وجدنا من النقاد القدامى من ينتصر إلى نظرية الفن للفن، ويعزله عن معتقدات الأمة وأخلاقها، فها هو القاضي الجرجاني يدافع دفاعا مستميتا عن الشعراء المنحرفين اعتقاديا وأخلاقيا وعلى رأسهم شاعرنا المتنبي، يقول:

"فلو كانت الديانة عارا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزّبعري وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما حرسا، وبِكاءً مفحمين؛ ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر"[2].

لقد سبق وأن قلنا أن العصر العباسي كان يمور بسيل من الثقافات المختلفة الوافدة من اليونان غربا، وبلاد فارس شرقا، والقرن الرابع منه على الخصوص؛ حيث ازدداد نشاط هذه الأفكار الوافدة حتى غدا تعداد الفِرَق التي تنتمي إلى الإسلام زورا يكاد لا يحصى، ومعظمها يفسر النصوص المقدسة من قرآن كريم وسنة تفسيرا باطنيا، وأبرز هذه الفرق وأكثرها جرأة واندفاعا، فرقة القرامطة التي ينتمي إليها شاعرنا أبو الطيب المتنبي، لمزيد من الإضاءة في هذا الموضوع نتابع مصطفاي:

([1]) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص: 699، 700.

([2]) القاضي الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، (د.ط)، ص:64.

ينتسب القرامطة إلى رجل يدعى حمدان قرمط وكان ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة ثم مال إلى الباطنية واعتنق دينهم. أما الباطنية فهو لقب الإسماعيلية التي امتازت عن الموسوية وعن الإثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر. وسمو بالباطنية لحكمهم بأن لكل ظاهر باطن، ثم أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج. وذكر صاحب الفرْق بين الفِرَق أن الباطنية قد اختلف المتكلمون في بيان أغراضها في دعوتها إلى بدعتها، فمنهم من جعل غرضها الدعوة إلى دين المجوس، ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحرّان.

أما عبد القاهر البغدادي فيرى أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع.

ونحن إذا أمعنا النظر في شعر أبي الطيب المتنبي وجدناه حافلا بالأفكار الثورية الذي تسربت إليه من المذهب الباطني والقرمطي ويؤيد ذلك عندنا ولادته بالكوفة مهد العلوية ونشأته بها ثم الشام وقيامه بدعوته الدينية والسياسية معا بأرض سلمية مقر الباطنية من الشيعة والتي عاش فيها عبيد الله المهدي الذي كان يرسل منها دعاته إلى اليمن والمغرب حتى أنشأ دولة الفاطميين المشهورة[1].

---

(1) – مصطفاي، مرجع سابق، ص: 708، 709، 710.

الفصل الثاني

الأنا المثالية في شعر المتنبي

- المثالية عند المتنبي
- الأنا المثالية المتعالية
- الآخر الأنا

قضى المتنبي حياته في ظل العظمة يطلبها لنفسه، ويأوي إليها عند غيره، فكانت شغله الشاغل حتى الوفاة، وكانت تتمثل له في السلطان يستبد معهم برقاب العباد، وفي المال يجمعه في طريق التعالي، وفي الثورة الكبرى التي كانت الشيعة الباطنية تدبرها لقلب العروش، وفي العبقرية الشعرية التي ترفعه إلى عالم الوحي وتنصب له عرشا على منصة الخلود. وشخصية المتنبي هذه هي كل شعره، ولهذا ملأ الشاعر ديوانه حديثا عن آماله العظام، وآلامه الجسام، ولم يستطع في كلامه الخروج عن روح الذاتية، أو قل الأنا المثالية المحلقة في أقصى حدودها؛ ولئن فتر مدحه للغير أحيانا فإن حديثه عن نفسه المتعالية لم يعرف الفتور، وهكذا كان مدحه للعظماء في خدمة الأنا المثالية المتعالية التي يراها من حق نفسه في عصر فسدت أخلاقه وسياسته.

وقد مدح المتنبي العربي والفارسي والإفريقي لا إعجابا بهم على أنهم من هذا الأصل أو ذاك، ومدحهم جميعا بصفات وحسنات لا إعجابا بتلك الصفات والحسنات، وإن كانت في بعض الأحيان ذات صلة بالحقيقة الشخصية في الممدوح؛ وعدد أمجادا وأفعالا، لا استغرابا منه لمثل تلك الأمجاد والأفعال، إنه مدح لينال أولا، وليصل إلى هدفه ثانيا.

ولقد عمد المتنبي إلى المدح وتناوله بِمِلْءِ نفسه وكامل روحه، وقد امتزج به امتزاجا، وصهره في ذاته صهرا، وكون من مجموعه كيانا مُتَنَبّيا هو خير ما يتصوره ويطمح إليه، أو قل هو ذات المتنبي في شتى نواحي نفسيته وشخصيته. وسواء أكان الممدوح ممن يحب الشاعر أو لا يحب، وسواء أكان في حقيقته ذو صفات عالية أو باهتة، إنه على كل حال يمدح ما يحب، ويصف ما يتصور، ويتدفق من ذاته على ذاته.

وحتى تكتمل صورة هذا الفصل وتتضح معالمه –الأنا المثالية في شعر المتنبي– كان من المفيد أن يُتناول في ثلاثة مباحث:

- المثالية عند المتنبي
- الأنا المثالية المتعالية
- الآخر الأنا

أولا: المثالية عند المتنبي:

يرى الناقد إيليّا الحاوي أن التجربة الفنية هي تجربة مثالية: "إن التجربة الفنية تستمد مادتها الأولى من الواقع، ولكن الواقع مجزأ، لا تبلغ به الأشياء نهاية مطافها، وأقصى غايتها. قد نقع في أحد المظاهر على نصف الحقيقة أو ربعها أو على ظل من ظلالها، أو رمز من رموزها، ولكننا لسنا نقع عليها كلها، فتوحيد الحقيقة وتأليفها وجمع شتاتها المتفرق المنثور عبر الوجود من عمل الفن، لهذا يتباين الواقع الفني عن الواقع الواقعي في أنه أكثر منه كمالا وأروع مثالا، الواقع الفني هو توحيد لآلاف الوقائع في الوجود، فما وقف منها في منتصف الشوط يكمل شوطه في الفن، وما انطوى على جزء من التجربة النفسية تتكامل تجربته، لهذا كانت التجربة الفنية تجربة مثالية، أي أنها توفي بالأشياء إلى أقصى غاياتها"[1].

ويبدو أن صاحب الوساطة أشار إلى مفهوم المثالية ولكن بتعبير آخر، أو قل بمصطلح آخر وهو الإفراط؛ حينما تحدث عن القدامى والمحدثين: "فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثيرا في الأوائل، والناس فيه مختلفون، فَمُستحسِن قابِل، ومُستقبِح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء، وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية، وأدته إلى الحال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق، والباب واحد، ولكن له درج ومراتب"[2].

ويعرف قدامة بن جعفر شعر المحدثين فيقول: "وهو أني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر وهما الغلو في المعنى إذا شرع فيه، والاقتصار على الحد الأوسط فيما يقال منه"[3].

ثم قال بعد ذلك: "إن الغلو عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم".

([1]) إيليا الحاوي، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط:04، 1979، ج2، ص:16.

([2]) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا–بيروت، د.ط، ص:420.

([3]) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص200.

ثم علل تفضيله بقوله: "وكل فريق إذا أتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الوجود ويدخل في المعدوم فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النّعت، وهذا أحسن من المذهب الآخر[1]، ويريد بالآخر مذهب الصدق.

والذي نريد في هذا المبحث هو معرفة نصيب شاعرنا أبي الطيب المتنبي من هذه المثالية بكل أنواعها، وقد قسمها موهوب مصطفاي إلى ثلاثة أصناف:

1-مثالية المتعة:

إن المتنبي لم يكن رجل لهو وهزل حتى يصرف همته إلى المتعة المادية، يقول في حديقة دخلها في صحبة أبي محمد بن طفج:

حتى دخلنا جنة لوْ أن ساكنها مخّلد
خضراء حمراء التّرا بِ كأنها في خدّ أغيد
أحببت تشبيها لها فوجدته ما ليس يوجد
وإذا رجعت إلى الحقائق هي واحدة لا وحد

ولنلاحظ قوله:

أحببت تشبيها لها... فإنه يدل على أن هذه الجنة لا نظير لها في الجنان كما أن صاحبها أوحد لا شبه له في الناس وفي ذلك اتجاه مثالي لا محالة.

ويقول في مسيره إلى عضد الدولة وهو يودع ابن العميد:

لنا مذهب العباد في ترك غيره وإتيَانه نبغي الرغائب بالزهد
رجونا الذي يرجون في كل جنة بأرجان حتى ما يئسنا من الخلد

يشبه الشاعر ما يناله من نعيم لدى ابن العميد بالنعيم الذي يرجوه الزهاد من العباد في دار الخلد.

وهكذا تصبح الجنة في الآخرة المثل الأعلى للطيبات التي يطلبها المتاعيون من المثاليين في هذه الدنيا، والمتنبي في هذا الاتجاه على وفاق مع الباطنية في دعواهم أن الجنة في الحياة الدنيا[2].

([1]) موهوب مصطفاي، المرجع السابق، ص:200.

([2]) المرجع نفسه، ص:724.

وسنرى فيما يلي أن أثر الباطنية في شعره كبير وأن مثاليته المطلقة تستوحي منها كثيرا من معانيها ويقول في مدح عضد الدولة ووصف شعب بوان، وهو موضع عند شيراز كثير الشجر والمياه يعد من جنان الدنيا.

يقول بشعب بوان حصاني   أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنّ المعاصي   وعلّمكم مفارقة الجنـان

وهكذا يتضح اتجاه المتنبي إذ يصبح غرضه هو تحقيق الجنة في هذه الدنيا لأن أرباب الاتجاه المتاعي يستعجلون طيباتهم ويحبونها كاملة كمال نعيم الآخرة[1].

2-مثالية الجمال:

الجمال الطبيعي هو ما أبدعه الله في الطبيعة من مناظر، كالجبال الشاهقة والوديان السحيقة، والمروج الزاهرة وآيتي الليل والنهار، والجمال الفني هو من صنع الإنسان، أي أنه جمال مبتدع، مكتشف، الجمال الطبيعي حقيقي ظاهر للعيان، أما الجمال الفني مثالي والحقيقة فيه مكتومة، وكل جمال قائم في الوجود هو مادة للجمال المثالي، أو مثالية الجمال. ولمعرفة حظ المتنبي منها نرافق موهوب مصطفاي:

وكذا شأنه (أي المتنبي) في مثالية الجمال فإنه كان يجيد أنواع الغزل رغم انصرافه عن مغازلة النساء التي يعدها ضربا من اللهو الذي لا يليق بمن يطمح إلى جلائل الأعمال ويسعى إلى تحقيق أمينته الكبرى التي هي الملك وقد عبر عن ذلك تعبيرا دقيقا حسنا في قوله:

ولا تحسبَّن المجد زِقًّا وقَيْنَـة   فما المجد إلا السيف والفَتْكَةُ البِكْرُ
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى   لك الهبوات السود والعسكر المجْرُ[2]

ويقول من قصيدة أخرى مبينا مذهبه في الحياة

وللخلود مني ساعة ثم بيننا   فلاة إلى غير اللقاء تُجابُ
وما العشق إلا غرة وطماعة   يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية   وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة   فليس لنا إلا بهنّ لعـاب

([1]) موهوب مصطافي، مرجع سابق، ص"725.

([2]) المرجع نفسه، ص:726.

ولكن هذا السلوك لم يمنعه من أن يكون له حسن التصرف في سائر أنواع الغزل حتى نرى له قطعا كان الناس يتغنون بها في المجالس لرشاقتها وبلاغتها كل مبلغ من حسن اللفظ وجودة المعنى واستحكام الصنعة، وقد يكون له من الإحسان ما لا يشق غباره فيه، غير أن غزله –رغم ما فيه من رقة وعذوبة تغلب عليه الصناعة أحيانا وهو في تلك تبع لمن سبقه من الشعراء[1].

يقول في قصيدة يمدح فيها مساور بن محمد الرومي:

لعبتْ بمشيتة الشمولُ وغادرتْ صنما من الأصنام لولا الروحُ

يقول إن الخمر غيرّت مشيته ورنّحته فتمايل في خطوه وزادت في حسنه حتى أنه لولا الروح الذي فيه لكان يظن صنما بدعوى أنه صوّر كما شاء المصور[2].

ويقول في أخرى يمدح عبيد الله بن خراسان الطرابلسي:

خريدةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت ولو رآها قضيب البان لم يَمِس

لأن هذه الحسناء صارت أكبر من الشمس والبان في الجمال الذي حازته كله.

وقال يمدح أبا العشائر:

لو سار ذاك الحبيب عن فلك ما رضي الشمس برجه بدلَهْ

الضمير من برجه للحبيب، أي لو كان مسير هذا الحبيب عن فلك من الأفلاك لما رضي البرج الذي كان فيه أن تحله الشمس بدلا منه لأنها لا تعادله في المحاسن[3].

وقال في قصيدة يمدح فيها عبد الله بن يحى البحتري:

تناهى سكونُ الحُسن في حركاتها فيس لرائي وجهها لم يمت عُذرُ

السكون خلاف الحركة، والضمير في حركاتها للحظات، يقول: إنها كيفما تحركت لحظاتها فالحسن ساكن في حركاتها بالغ نهايته في ذلك فمن أبصر وجهها ولم يتعشق هذه المحاسن حتى يموت في حبها فإنه ملوم لأنه لم يُعط ذلك الجمال حقه[4].

يرى الدكتور موهوب مصطفاي أن المتنبي مقلدا لا مبدعا في مثالية الجمال: فيقول: "ولكن المتنبي في هذه المعاني كلها وفي اتجاهه المثالي قد سبقه إليها الطائيان،

([1]) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص:727.

([2]) الشيخ ناصيف اليازجي، مرجع سابق، ص:204.

([3]) المرجع نفسه، ص:501.

([4]) المرجع نفسه، :ص 199.

والأفضلية ترجع لا محالة إلى امرئ القيس الذي سنّ للشعراء بعده هذه الطريقة المثالية في تصوّر الجمال، وليرجع القارئ إلى معلقته التي يصف فيها حسناء وصفا مثاليا مطلقا إذ يتخيلها كاملة المحاسن كما يختارها من المترفات اللواتي يبتن على فتيت المسك كما يقول:

وتضحي فتيتُ المسك فوق فراشها نؤُوم الضحى لم تنتطقْ عن تفضل".[1]

يقول: تصادف العشيقة الضحى ودقاق المسك فوق فراشها الذي باتت عليه، وهي كثيرة النوم في وقت الضحى، ولا تشد وسطها بنطاق بعد لبسها ثوب المهنة، يريد أنها مخدومة منعمة تُخدم ولا تَخدم[2].

3-مثالية العظمة:

مجّد الإنسان القوة، وعانق المجد والعظمة، ورأى الخير في الغلبة، والشر في الهوان والخذلان، وكانت شهوة التحكم تملك عليه لبّه فتحمله على البعد عن الخنوع والخوف والجبن إلى البأس والعظمة والجبروت؛ والمتنبي أحد هؤلاء العظام فُطر على حب العظمة وتَعشُّق السيادة ولكنها العظمة المثالية المطلقة.

يقول موهوب مصطافي عن مثالية العظمة عند المتنبي:

"ولذلك إذا أردنا أن نبين عبقريته وعظمته في الشعر فلا نجدها إلا في التعبير عن طموحه إلى الملك وفي وصفه للمعارك التي هي سبيل إلى تأسيس الممالك وذلك ما جعل ابن الأثير يقول فيه: واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولا لست فيه متأثما وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقه في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف ما أدى إليه عيانه.

ولنلاحظ قوله الأخير: ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه، فإننا نلمس فيه سر إبداع المتنبي في الشعر الملحمي لأنه كان يحيا بتلك المعارك التي يصفها بمشاركته في الحرب فهو إذا تحدث عنها فحديثه حديث مجرب خبير، ومن يطالع ديوانه يحس أن من أعظم اللذات عند شاعرنا

([1]) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص:728، 729.

([2]) أبو عبد الله الحسين الزوزني، **شرح المعلقات السبع**، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط:01، 2010، ص:25.

العظيم وصفه للقتال إذ هو جد مغرم بخوض المعارك حتى أن اعتناقه للأبطال فيها يساوي أو يفوق اعتناقه للحسناء وقد يرمز إلى هذا الغرام الغريب النادر باستعماله ألفاظ الغزل في أوصاف الحرب"[1].

ويواصل مصطافي قائلا:

"وهكذا يريد أن يعرف بنفسه عن طريق الحروب التي تكسب البطولات إذ كان مطمحه أن تكون له شهرة الأبطال، بل البطل الفذ الذي ليس له شبيه ولا نظير، ولذلك يحلم بإحداث دويّ عظيم في الدنيا بانتصاراته الباهرة على أعدائه وخصومه ولنسمعه يعبر عن حلمه الكبير:

ولا تحسبنّ المجد زِقًّا وقيْنــة فما المجد إلا السيف والفَتْكةُ البِكْرُ

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجْرُ

وتركك في الدنيا دويا كأنمـا تداول سمع المرء أنمله الشعر

نتبين من الأبيات أنه لا يريد لنفسه إلا شهرة عظيمة كالتي يحصل عليها الأبطال الأفذاذ، وهكذا تنشأ عنده نظرية في العظمة دعامتها طلب العيشة الكريمة العزيزة التي يقول فيها:

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهب للغيظ وأشفى لغلّ صدر الحقود

فاطلب العز في لظى وذر الذّ ل ولو كان في جنان الخلود

إن طلب العز هو الذي يعطي لفلسفته في الحياة قوة وحجة دامغة تدفع المرء أن يكون شجاعا لأن الشجاعة هي التي تضمن العزة والكرامة اللتين هما الغاية الكبرى في هذه الحياة ولذلك يقول:

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى

غير أن الفتى بلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جبانا[2]

لقد بث المتنبي عظمته المثالية في شعره مثلما بث حكمته، إذ يتعاظم وهو يمدح، لئلا يقال إن ممدوحيه أرفع منه منزلة، وتعاظم حين هجا، ليتلذذ بتجريح أعدائه، وتعاظم

([1]) موهوب مصطفاي، مرجع سابق، ص: 729، 730.

([2]) المرجع نفسه، ص:732، 733.

يوم رثى، ليرد بالتعاظم شماتة الشامتين، وهكذا تناثرت العظمة في شعره، هنا وهناك، ولم يجئ ما قاله في هذا المجال، حشوا يسُتغنى عنه، وإنما كانت هذه العظمة لونا من الزركشة الجميلة التي تأنقت وتألقت بها قوافيه، ولقد استوقفتني كلمة جميلة لفوزي عطوي عن عظمة المتنبي، نرى من الفائدة ذكرها:

"وكل ما في أمر المتنبي أنه شاعر أصيب بجنون العظمة؛ وما لم نضع في حسباننا هذه الظاهرة الحقة في شخصية المتنبي، فإنا نعجز عن تفهم الروح التي صدرت عنها أبياته، بل شطحاته الفخرية، ويبلغ جنون العظمة بالشاعر مداه، يوم يهنئ سيف الدولة بعيد الضحى، فيقفز من الحكمة إلى المدح، إلى الفخر، إلى التعريض بالحاسدين:

ازلْ حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيّرتهم لي حسدا
وما أنا إلا سمهريٌّ حملته فزيّن معروضا، وراع مسددا
وما الدهر إلا من رواه قصائدي إذا قلتُ شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير، مشمرا وغنى به من لا يغني، مغَردا
أجزني، إذا أنشدت شعرا، فإنما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي، فإنني أنا الطائر المحكي، والآخر الصّدا"[1].

([1]) فوزي عطوي، مرجع سابق، ص:53

ثانيا: الأنا المثالية المتعالية:

إن النزوع إلى التعالي والتسامي مُتجذّر في نفس المتنبي، وهو مقوّم من مقومات شخصيته بما استشعره في تكوينه وطبيعته من إمكانات أكسبته اعتدادا بالنفس وترفعا على الآخرين حتى غدا مقتنعا بأنه وحيد زمانه وفلتة من فلتات دهره، لا أحد يفوقه ولا أحد يشبهه:

أمِط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحد مثلي[1]

ولما أخذ منه هذا الإحساس بالفوقية والاستعلاء مأخذه، بات يرى نفسه غريبا بين البشر غربة الأنبياء الذين لم يؤمن بهم أقوامهم.

أنا في أمة تداركها اللّـ ـه غريبٌ كصالح في ثمود[2]

من رأى نفسه في مصاف الأنبياء لا يجد حرجا في الاستعلاء، لا على عامة الناس فحسب، بل على الأمراء والوزراء كذلك.

يقول أحمد حسن الزيات: "... حتى أوجس كافور خيفة، لتعاليه وطموحه إلى الملك، فزوى عنه وجهه، فهجاه وقصد بغداد، ولم يمدح الوزير المهلبي لأنه كان يرتفع عن مدح غير الملوك، فشق ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره، ولكنه لم يجبهم، وذهب قاصدا أرّجان لزيارة الفضل بن العميد، فكتب إليه الوزير الصاحب بن عباد يستزيره بأصبهان طامعا أن يمدحه فلم يقم له وزنا وأَمَّ عضد الدولة بشيراز، فأوْغَر عليه قلب الصاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته – وشن عليه وأشياعه حربا قلمية، وألفوا الكتب في نقده، ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهابا بنفسه وإعجابا بشعره"[3].

يرى الأستاذ فؤاد أفرام البستاني تشابها بين المتنبي والفيلسوف نيتشه*، في الاستعلاء وتجاوز الأنا عند كل منهما حدود الواقع رغم البعد الزمني الذي يفصل بينهما.

([1]) ديوان المتنبي، ص:172.

([2]) المرجع نفسه، ص:65.

([3]) أحمد حسن الزيات، **تاريخ الأدب العربي**، دار الشرق العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 2006، ص:283.

(*)– فيلسوف وشاعر ألماني (1844–1900).

يقول: "عرفنا أبا الطيب متكبرا معجبا بنفسه "لا يرى فوقها من مزيد" سباقا إلى الغايات، طالبا منها أبعد ما يتصوره الفكر، وكل ذلك بقوته وهمته، لا بحسن حظه، فلزم إذا أن تكون هذه الكبرياء، المتجسمة بهمة شاعرنا، أصل فلسفته، فهو، والحالة هذه، يتفق مع نيتشه فيلسوف القوة. ومن يقابل بعض أبيات المتنبي وبعض أقوال نيتشه، كما فعل الأستاذ العقاد، يتحقق من صحة هذا التشابه ويرى أن الشاعر الشرقي في القرن العاشر الميلادي، لم يكن لينحط، فكرا وتعبيرا، من الفيسلوف الغربي في القرن التاسع عشر، من منا يسمع نصائح نيتشه:

"يا إخواني في الحرب! إني أحبكم من كل قلبي.. فاسمحوا لي أن أقول لكم الحقيقة: كونوا عظماء.. فتشوا عن أعدائكم..حاربو...

"عليكم أن تحبوا السّلم واسطة للحروب الجديدة!..

"أنا لا أنصح لكم العمل بل الكفاح! أنا لا أنصح لكم السّلم بل النصر. ليكن عملكم كفاحا وسلمكم نصرا".

من منا يسمع هذه النصائح ولا يفكر حالا بنصيحة المتنبي

إذا غامرْت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

أما طريقة طلب حقه فلا تختلف في شيء عما ينص عليه نيتشه، فهي ليست العمل، بل الكفاح والعراك، إن مبدأ فلسفة المتنبي القوة، والطريقة الوحيدة لإدراك الغايات في عرفه، هي الكفاح والعراك، ولما كان في البشر شجعان وجبناء، انقسم الناس بحكم الطبع، في مذهب شاعرنا قسمين متباينين[1]:

في القسم الأول: يرى الشجعان، والسادات والكرام، والأحرار، وبعض الملوك، وهؤلاء وحدهم يليقون أن يكونوا أقرانا للمتنبي، يكافح معهم، ويحاربهم فيكون له الفضل، إذا ما انتصر عليهم.

أما القسم الثاني: فيشمل الجبناء، واللئام والبهائم، والعبيد ككافور مثلا، وبعض الشعراء من حساد المتنبي، وهؤلاء لا نفع منهم إلا تضييق مجال الكون، ولا يليق بالكريم أن يناظرهم أو يسابقهم إلى أمر، حتى إنه لا يليق به أن يعيش معهم، إلا كما يعيش "الذهب

([1]) فؤاد إفرام البستاني، **أبو الطيب المتنبي، المراثي والمفاخر والحكم**، دار المشرق، بيروت، ط:9 (د.ت)، ص: 71، 72.

بين الرغام" أما إذا أجبر الحر على الحياة طويلا مع هذا النوع من "الخلق" فيكون الموت والحياة سواء.

وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معي، فيها، نصيبا!

وهذان القسمان من الناس متباينان تماما، فلا صِلَةَ بينهما، وإن تقاربا في الظاهر:

فالعبد ليس لحر صالح بأخ لوْ أنه في ثياب الحر مولود! [1]

وقبل أن نودع البستاني نود أن نعرف رأيه في تعالي المتنبي:

"أول ما يلفت نظر دارس المتنبي تلك الأنفة الشديدة والكبرياء القوية الظاهرة في حب السيادة والترفع عن الدنايا، واحتقار الغير، والرغبة في مساواة الملوك والأمراء، وهي عواطف سامية ترافق الشاعر في كل حياته، فتبدو في أعماله وتصرفاته جميعا، وتظهر في كل قصيدة نظمها سواء المدح والهجاء والفخر والحكم. وقد رأينا في حياته الشواهد العديدة على هذه العظمة الفطرية.

وكان من نتيجة حب العظمة هذه تهورات عديدة رافقت صاحبها منذ صباه، إذ دعا الناس إلى بيعته، فألقي القبض عليه وحُبس؛ إلى كهولته، إذ حمله الكبر على رفض نصيحة أبي نصر الجبلي، فسار وحيدا في مجاهل البادية حتى قتله فاتك الأسدي.

وقد بلغ من كبره أنه كان يشترط على ممدوحيه من الأمراء ألا ينشدهم إلا جالسا، وألا يقبل الأرض بين يديهم، فيقبلون ذلك رغبة في شعره[2].

ويقول فيه جرجي زيدان: "وكان مفطور على كبر النفس وبعد الهمة، فلم يقنع بما يتمناه سواه من الشهرة بالشعر أو الأدب...فطلب السيادة بالفتح فدعا إلى بيعته قوما من مريديه من أبناء سنه فبايعوه، وحين كاد يتم أمر دعوته وصل خبره إلى والي البلدة فقبض عليه وحبسه"[3].

مجد المتنبي نفسه وتعالى بها حتى عانق المثالية المطلقة، هذا التعالي دفعه إلى احتقار غيره من الناس والملوك، وجعله لا يرى إلا نفسه في هذا الوجود، ولا يجد فوقها من هو أحسن منها مادام خير من تسعى به قدم. ولقد تصفحت إحدى رسائل الماجستير

([1]) فؤاد أفرام البستاني،**أبو الطيب المراثي والمفاخر والحكم**، مرجع سابق، ص:72.

([2]) فؤاد أفرام البستاني، **أبو الطيب المتنبي المدائح والأهاجي**، مرجع سابق، ص:17.

([3]) جورجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط:2، سنة 1978، ج1، ص:595.

فوجدت فيها كلاما عن تعالي المتنبي وأنيّته المثالية المتضخمة، فاستهواني هذا الكلام واستمالني لأنه يصبُّ في المجرى الذي أريد.

وقد أدْركَ المتنبي تميّزه وتفرّده مما دفعه إلى تعظيم الذات، والتعالي على الآخرين، ونستطيع أن نلاحظ الأنا الجبارة العاتية، وظاهرة الفخر الذاتي منذ نشأته، وقد عرف عنه أنه ينزع إلى الفخر، ويسعى للوصول إلى أعلى المراتب قبل أن يكتمل في طرفي وجهه الزلف والشارب، والمتنبي استحوذ على أعلى الدرجات، فسما على الناس جميعهم، وأصبح لا يتقي عظيما، ولا يخاف أحدا، وأبعد من ذلك فالجميع محتقر في نظره كشعرة في مفرقه[1]، يقول:

أي محل أرتقــي   أي عظيم أتقي؟
وكل ما قد خلق اللّـ   ـه وما لم يخلق
محتقر في همتـي   كشعرة في مفرقي[2]

فالإغراق في مدح الذات سمة معروفة لدى الشاعر، ولكن ما تبرير هذا الإغراق في المدح، والشعور بالعلو؟ أهو إحساس الشاعر بالتميز؛ مما أسهم في تكريس تعاظم الأنا حتى المغالاة؟ أم إحساسه بنقص النسب؛ الأمر الذي دفع به للجوء إلى الأنا المتعالية؛ لتعويض هذا النقص؟

إن المتنبي منذ الصبا كان يتغنى بأنيّته، وظلت بذور الفخر تنمو في حياته وتتضخم في شاعريته، وهو على كثرة فخره بنفسه لم يخص قصيدة واحدة لهذا الموضوع، وإنما جاء فخره في الأغراض الأخرى كالمديح والرثاء، ونجده يقحم نفسه في القصائد جميعها، ويزج نفسه بها حتى باتت تلك عادة معروفة عند المتنبي، وهو لا يستطيع أن يمدح دون أن يفتخر بنفسه، وكأنه لا يمدح أو يرثي أو يهجو إلا ليرسم فخره، فالفخر شاهد على شاعريته وجذوة نظمه، وإذا وجدنا في مديحه هوانا، فإننا نجد في فخره إباء، وإن سلط غضبه على مهجوويه فإنه يستعين على الحطّ من قيمتهم برفع شأنه، وإذا وجدناه يرفع الممدوحين إلى أعلى المراتب، فلا ينسى أن يضع نفسه في مرتبة ممدوحيه، أو أعلى منها، بل إنه يفخر ويمدح في بيت واحد. ويظل الشعور بالعلو والسمو على

([1]) رولا خالد محمد غانم، **الآخر في شعر المتنبي**، إشراف الدكتور عبد الخالق عيسى، نوقشت في: 07-10-2000، جامعة لنجاح الوطنية، نابلس، ص:09، 10.

([2]) - ديوان المتنبي، مرجع سابق، ص: 136.

الآخر هاجس الأنا لدى المتنبي، مهما عظم شأن الآخر وكبر، يقول مادحا محمد بن سيار التميمي:

فلما رآني مقبلا هزّ نفســه إليّ حسام كل صفح له حد

فلم أر قبلي من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

فهذه صورة للأنا تبرز ما استقر في أعماق الذات من السمو والرفعة على الآخر، وهذه الصورة جاءت بعد مقدمة طويلة تدور حول محور الذات، وعلى مدى نصف القصيدة يمدح الشاعر فيها نفسه، ويحتضن ذاته، ويحاورها بنبرة من العبادة[1].

وينتفخ المتنبي أحيانا، ويتعاظم بأنيته حتى يعانق المستحيل، فيرى أنه أعظم من الزمان، ولو تجسد له صرعه بحسامه، ويرى أن الليالي ما بلغت مرادها منه من تغيير حاله وإضعاف عزمه، ولا انقاد لها انقياد من يسلم زمامه إلى غيره، يقول:

ولو برز الزمان إليّ شخصا لخضب شعر مفرقه حسامي

وما بلغت مشيئتها الليالي ولا سارت وفي يدها زمامي[2]

إن إدراك المتنبي تفرده وتميزه في الساحة الشعرية، كان يذكي في تكريس تعاظم الذات على نحو مبالغ فيه، فمنذ ظهر المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس، رزق المتنبي من الشهرة وانشغال الناس بأمره حظا لم يرزقه أحد قلبه، ولا بعده من شعراء العرب، فقد سار شعره كل مسير، ورويت قصائده في كل أرض فيها ناطق بالعربية، يقول الكثير من الأدباء إن الطيب المتنبي كان مجدودا في شعره، فلم يسعد قبله، أو بعده شاعر بما سعد به من اهتمام رجال الأدب بكلامه، واحتفالهم به، وتناول شعره بالشرح والنقد والتحليل، وكأنه كان ينظر إليهم حين قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي واستمعت كلماتي من به صمم

أنام مِلْءَ جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم[3]

لقد قدم لنا أبو الطيب نفسه بصورة تعزز الثقة بالتميز والتعالي، ففاقد البصر نظر إلى أدبه، وفاقد السمع استطاع سماع شعره الذي يصدح بين جميع الناس.

([1]) رولا خالد محمد غانم، مرجع سابق، ص: 10، 11.

([2]) ديوان المتنبي، ص:216.

([3]) المرجع نفسه، ص:204.

وقد حرص الشاعر من خلال هذا البناء الفني الموحي على إبراز الأنا بصورة متعالية من خلال قطع النسق بعناصر غير متوقعة، تفاجئ المتلقي وتخالف خبرته ومعرفته، وهذا باد في قوله (نظر الأعمى) و (أسمعت كلماتي من به صمم) فقد حاول الشاعر بهذا الكلام مشاكسة المتلقي وإثارته، وذلك بخرق معارفه، وتجاوز الحقيقة، وبالتلاعب بالكلام، إذ كيف للأعمى فاقد البصر أن ينظر إلى أدب المتنبي؟ وكيف للأصم فاقد السمع أن يسمعه؟[1].

لقد سقى المتنبي نفسه من كأس العجب والتعالي المثالي حتى الثمالة، وعجبه صادر من رجل عجيب لا يجد لأحد مزية عليه في الشرف، فلا سبيل لإنكار شرفه، يقول:

إن أكن معجبا فعَجَبُ عجيبٍ لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسود[2]

لقد تعالى المتنبي على أقرانه، وأنشد الشعر قائما على ظهر جواد، أو جالسا في حضرة الأمير، خلافا لما كان عليه مداحو عصره وغير عصره، وإذا هجا كان انتقاما للأنا المتعالية، واحتقارا لكل من سواها.

يقول حنا الفاخوري: لم يكن المتنبي من المولعين بالهجاء أو الميالين إليه طبعا وسليقة، ولم يكن ليعيره اهتماما حقا، ولم يكن الناس عنده، مهما عظموا، أهلا لأن يخصهم ولو بشيء من هجاء، ولذلك ندر هذا الفن في ديوانه، فأتى غضبة عارضة يثور فيها على كاذب، مثل كافور، لا يصدق له وعد، أو يثور فيها على رجل كابن كيغلغ أبى الشاعر أن يمدحه فحاول إيذاءه، وهكذا فالهجاء عند المتنبي انتقام لكرامة ونثار من زمان خائن، واشمئزاز من دناءات، واحتقار للؤم، واستصغار لمجموعة من البشر على وجه الأرض.

قال يهجو كافورا الأخشيدي:

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلا وفي يده من نَتْنِها عود

أَكُلّما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد

صار الخصي إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود

([1]) – رولا خالد محمد غانم، **المرجع السابق**، ص:19، 20.

([2]) – ديوان المتنبي، ص: 53

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بَشِمْنَ وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيدُ
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن ... يسيئ بي فيه عبد وهو محمود
وأنّ ذا الأسودَ المثقوب مشفره ... تطيعه ذي العضاريط الرعاديد
جرعان يأكل من زادي ويمسكني ... لكي يقال عظيم القدر مقصود
من علم الأسود المخصيّ مكرمة ... أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النخاس دامية ... أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللئام كويفير بمعذرة ... في كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود[1]

وهجاء المتنبي لكافور اشمئزاز واستصغار وتقبيح، إنه يشمئز لكونه وصل إلى زمن يسيء فيه عبد بسيد الأحرار، ولكونه –وهو ما هو– وقع في أحط مجتمع لأجل أنبل هدف، فضاع الهدف ولم تمح القذارة التي تنازل إليها في سبيل الهدف، ومن ثم فقد "لذ طعم الموت شاربه، إن المنية عند الذل قنديد" والمتنبي يستصغر شأن كافور لأنه خال من اصل ونسب، وخال من كل شرف وحسب. وهو من ثم يحتقره ويضخم قبائحه تضخيما، ويتعاون في ذلك التضخيم قلب متألم هائج، ونفس مشمئزة شديدة الانفعال؛ وتشاؤم لا يرى في أرفع الناس إلا شرا وفسادا فكيف بأحط الناس وأدناهم منزلة وشأنا؛ وكبرياء تغلبت عليها الحقارة، ونبوّة غشها الكذب والنفاق، وعبقرية كان الدهر من رواة أشعارها وكان بلاط سيف الدولة من أروع منابرها، وعنفوان أصبح موضوع شماتة في أعين الحساد الذين ناصبوه العداء من المشارق إلى المغارب.. إن الموت نفسه يستقبح نفس كافور ولا يتناولها إلا بعود لنتنها وقبح رائحتها؛ ومصر لم ترضه سيدا إلا أن أهليها إذ ذاك عبيد العبيد؛ وإن هذا الأسود لأقبح الناس خلْقا وخُلُقا: مشفر مثقوب، وأذن في يد النخاس دامية... وغدر وخيانة، ونجاسة وكيد... ألا ترى في ذلك كله القبح مضخما تضخيما تحقيريا؟ ألا تجد الألفاظ نفسها تستصغر المهجو بحروفها وحركاتها وسكناتها؟

([1]) حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص: 846، 848.

وتمتد الذكرى بالشاعر إلى "الفحول البيض" من مثل سيف الدولة وغيره، ويقارن ما فعلوه به وما فعل كافور فيعذر العبد، ويهجو بذلك الناس أجمعين[1].

وقبل أن نأخذ في رأي مخالف تماما؛ يحط من تعالي المتنبي وتسامي الأنا عنده، نود أن نستكمل سريعا ما سبق ذكره عن أنية أبي الطيب المتعالية بما قاله الدكتور إحسان عباس

"وصدم المتنبي الذوق مرتين: مرة بشخصه المتعالي المتعاظم، ومرة بجرأته في الشعر جرأته التي تركب المبالغة حتى تمس العقيدة الدينية، وتنتحل آراء فلسفية غريبة، وتستخف بأصول اللّباقة والعرف في مخاطبة الممدوحين ورثاء النساء، وتتصرف باللغة تصرف المالك المستبد...الخ وتثبت المعركة بين الأنصار والخصوم، ولكن حَصَادَها كان قليل الغنى، لأن الخصوم أرادوا تحطيم شعر المتنبي انتقاما من شخصه وتعاظمه وتعاليه"[2].

وفي ختام هذا المبحث، نحط الرحال على مضارب خيام طه حسين لنعرف رأيه واضحا في تسامي الأنا عند المتنبي وتعاليها، يقول:

"أقبل المتنبي إذن على كافور وضيعا ذليلا، قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس، وقد رأينا في بعض ما سبق من هذا الحديث أن المتنبي لم يصف أحدا كما وصف نفسه حين قال:

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنّزالا

فنلاحظ الآن أنه لم يصف أحدا كما وصف نفسه حين قال أيضا:

من يهن يسهل الهوان عليه وما لجرح بميت إيلام

فقد ماتت نفس المتنبي أو كادت تموت حين فارق سيف الدولة هاربا من الكيد ومكر الحاشية، وباع كرامته وصداقته من كافور بثمن بخس هو أن يكون واليا في ظل عبد:

يستخشن الخز حين يلمسه وكان يُبْرى بظفره القلـم[3]

([1]) – حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص: 848، 849.

([2]) –إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة بيروت–لبنان، ط:2، 1978، ص:252، 253.

([3]) – طه حسين، **مع المتنبي**، دار المعارف، مصر: ط:09، د.ت، ص:286.

ماتت نفسه أو كادت تموت، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقي منها، إنما كان شر أجزاء نفسه وأهونها على الناس حين يلتمسون الخلق والفلسفة، وكان خير أجزاء نفسه وأكرمها على الناس حين يلتمسون الشعر والفن والغناء.

بهذا الرمق الذليل الخصب المهين القوى، أقبل المتنبي على كافور، فمدحه وتملقه، ورغب إليه وطمع فيه. ومن هذا الرمق نفسه انصرف المتنبي عن كافور راغبا عنه زاهدا فيه، هاجيا له، كافرا بأنعمه، مشبعا في الفحشاء، مذيعا فيه السوء، وذنب كافور أنه عرف المتنبي كما كان ينبغي أن يعرف، ووضعه في الموضع الذي كان ينبغي أن يوضع فيه. رآه شاعرا يبيع المدح والثناء بالدراهم والدنانير، فاشترى منه المدح والثناء بالدراهم والدنانير، ورآه أحمق يجهل قدر نفسه، فجاراه في هذا الحمق ليصرفه عن خصمه، وليحمله على أن يكذب نفسه وينكر ما كان قد قال فيه، ويمدحه بعد أن كان قد ذمه، ووفق كافور لكل ما أراد. فذنب كافور إذن أنه كان عاقلا فطنا لبيبا، لم يخدعه المتنبي. وما كان للمتنبي ولا لأبرع منه أن يخدع هذا الأسود الدّميم الذي استطاع أن يتجاوز قدره، وأن يفرض نفسه على الدولة الإسلامية كلها، وأن يقتطع أحسن أجزائها، فيستأثر فيه بالملك والسلطان، نعم! ذنب كافور أنه كان عاقلا فطنا، وأنه كان يحسن العلم بالناس، ويضع الأمور في مواضعها.

ولكن لا بأس على المتنبي من هذا التلون والاضطراب، فنحن قد ربحنا من هذا التلون والاضطراب شيئا كثيرا، ربحنا هذا الشعر الذي حفظه لنا ديوان المتنبي بما فيه من مدح وهجاء، ومن حزن وغناء؛ فهو سواء ألاءم الحق أم لا يلائمه، أعذب شعر المتنبي وأرقه، وأصفاه وأصدقه، تصويرا للناحية الإنسانية المؤلمة من نفس هذا الشاعر البائس الحزين"[1].

([1])- المرجع نفسه، ص:287.

ثالثا: الآخر الأنا:

لقد رأى المتنبي الجمال المطلق في بلاط سيف الدولة، فمدح سيف الدولة بما رآه منه، وتمنى أن يرى الجمال المطلق كذلك في بلاط كافور، فمدح كافورا بما تمنى أن يراه عليه.

ولذلك كان لزاما على دارس أدب المتنبي أن يفصل بين نوعي مديحه: بين مديح القلب والوجدان يجلل به مآثر سيف الدولة ومكارمه، وبين مديح الفم واللسان، يديره كمن يجتر الكلام اجترار.

إذن فمدح سيف الدولة هو من أصفى الشعر الوجداني وأرقه لدى أبي الطيب، فالمتنبي آمن بسيف الدولة، ووثق به، وزها بصداقته، وتاه على أقرانه بما كسبه من المنزلة الأثيرة لديه، وأعجب بأدبه، وخلقه، ونسبه، وشجاعته، وفروسيته، وذوده عن حياض الأمة، ونال من عطاياه ما جعله يثرى بعد إملاق وينعم بعد شقوة.

ولست أعدو الحق إذا قلت، إن السر في صدق المتنبي مع سيف الدولة هو أنه رأى نفسه ماثلة أمامه في شخص الأمير، ولا يمدحه إلا بما يراه في نفسه، فهو ينطلق من ذاته ولا يعود إلا إليها، ولهذا سنركز في هذا المبحث على بلاط سيف الدولة إذ هناك يتجلى الآخر الأنا واضحا.

يقول المتنبي مادحا سيف الدولة في قصيدة بحلول العيد، ثم يتوقف قرب نهاية القصيدة قائلا:

أزل حسد الحساد عني بكبتهم ... فأنت الذي صيّرتهم لي حسدا
إذا شدّ زندي حسن رأيك في يدي ... ضربت بنصل يقطع الهام مُغْمدا
وما أنا إلا سمهريٌّ حملتـه ... فزين معروضا وراع مسـددا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا ... وغنى به من لا يغني مغـردا
أجزني إذا أنشدت شعرا فإنما ... بشعري أتاك المادحون مـرددا
ودع كل صوت بعد صوتي فإنني ... أنا الطائر المحكي والآخر الصدا[1]

([1]) –ديوان المتنبي، ص: 61.

تبرز "الأنا" قوية، فتشكل هذه لظاهرة الغريبة في فن المديح، أو بعبارة أخرى المديح المعكوس الذي يتناول فيه الشاعر ذاته مبلورا عبقريته "ضربت بنصل يقطع الهام مغمدا" ولو مدح الأمير بهذا لكان ذلك السيف الذي يقطع الرقاب وهو في الغمد من جيد المديح، وهكذا الشأن في "السمهري الذي يروع مسددا".

إنه بطل آخر يحكي على أمجاده، ويتغنى الدهر بأناشيده التي يرددها الناس – ومنهم الأمير– وتخلد على الزمن قصائده شاهدة على عبقريته، وهنا يلتفت إلى الأمير – وهو ما يزال في غمرة انفعاله بأمجاده– طالبا منه أن يجيزه، ويأتي الفعل عالي النغم كأنه الأمر، ويتكرر الطلب العنيف أو الأمر "ودع كل صوت بعد صوتي" فقد ردد الشعراء أصداء أقواله، إنه لا يضع نفسه إلى جوار الممدوح وحسب، ولكنه يسجل أيضا أمجاد الأمير وأمجاده، وعظمة الأمير وعظمته وصف الأمير بالذكاء وعلو الهمة والجود، ووصف نفسه بالذكاء في قصيدة أخرى، لعل الأمر الوحيد الذي لم يستطع أن يجاري فيه الأمير هو العطاء، ولكنه عطاء فانٍ مقابل مديح خالد[1].

يقول المتنبي في سيف الدولة:

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى وما علموا أن السهام خيول

همام إذا ما هَمَّ أمضى همومه بأَرْعَنَ، وَطْءُ الموت فيه ثقيل[2]

أي رماهم بالخيل مسرعة إليهم إسراع السّهام ولم يعلموا قبل ذلك أن السهام تكون خيلا، وهذا الذي رماهم بالخيل هو ملك عظيم الهمة، إذا هم بأمر بلغه بقوة جيشه وثقل الوطء كناية عن شدة الأخذ والمتنبي هنا يشيد ببطولات سيف الدولة، ولكن هل يستطيع أن ينسى نفسه وحظها من المديح والإعجاب؟

يقول ماهر حسن فهمي: "ولم تتم الصورة في كثير من الأحيان إلا ونرى إلى جوار البطل صورة المتنبي الشاعر الخالد، الذي أتعب حساده كما أتعب البطل أعداءه كلاهما تفرد بعبقرية خاصة.

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول

أعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار في تجول

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندَهُنّ قليل

([1]) –ماهر حسن فهمي، ظاهرة الأنا في شعر المتنبي بين النظرية والتطبيق، (د.ت)، د.ط)، ص: 74، 75.

([2]) –ديوان المتنبي، مرجع سابق، ص:162.

ويستمر في شعره واضعا صورته إلى جوار صورة سيف الدولة، بعد أن يتحدث عن بطولة الممدوح، ويستغرق في ذلك استغراقا رائعا، ألم يكن ممن شاركوا بسيوفهم في ذلك المجد فكان إلى جوار سيف الدولة في معاركه؟

إنه حديث عام ينسى الشاعر فيه نفسه ويتحدث عن البطولة في المعارك والمغالبة في القتال، فإذا انتقل إلى سيف الدولة بعد أن يعود إلى الموقف، –موقف المديح– تناول الشجاعة في الميدان

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جَفْنِ الردى وهو نائم

ولكن هذه الصورة على روعتها، صورة البطل في خضم الموت وقد ابتلع الموت كل شيء سوى البطل، كأنه يقدر البطولة أو كأنه في جفن الموت وهو غافل عنه، ألم يصف بها نفسه أو يقترب منها حين أفرد نفسه بالشجاعة النادرة التي دفعت الدنيا إلى الإعجاب والتعجب من جرأته؟

صحبت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكم[1]

هكذا نراه في نهاية القصيدة على أية حال، يقف إلى جوار سيف الدولة:

لك الحمد في الدر الذي لي لفظة فإنك معطية وإني ناظم

وإني لتعدو بي عطاياك في الوغى فلا أنا مذموم ولا أنت نادم

إننا نحس أمرا آخر جديدا في هذا المديح، فسيف الدولة شاب والمتنبي شاب، وسيف الدولة شاعر والمتنبي شاعر، وسيف الدولة عربي متعصب لعروبته والمتنبي متعصب لعروبته، وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس، ولذلك فصورة البطل تجمع أهم هذه الصفات المشتركة وتتوارى فيها ملامح الوجه، أتراه سيف الدولة أم تراه المتنبي نفسه؟ إن المسافة تزول ويحدث شيء يشبه التطابق، خاصة إذا كان الأمر أمر بطولة وعلو همة[2].

وقال يمدحه، وقد أراد سيف الدولة قصد خرْشنة فعاقه الثلج عن ذلك:

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان في كل بلدة إذ عظم المطلوب قلّ المساعد

وتسعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

([1]) – ماهر حسن فهمي، مرجع سابق، ص:77.

([2])– المرجع نفسه، ص:78.

تثني على قدر الطعان كأنما مناصلها تحت الرماح مراود
وأورد نفسي والمهند في يدي موارد لا يصدرن من لا يجالد
ولكن إذا لم يحمل القلب كفه على حاله لم يحمل الكفّ ساعد[1]

ولنتتبع تعليق ماهر حسن:

أتراه يتحدث هنا عن سيف الدولة وقد هم بالمعركة فمنعته الأقدار، وعن وحدته في جهاد الروم بينما الملوك من حوله ينغمسون في لذاتهم؟ إنها صورة بطل فوق فرسه يخرج من معمعة ليدخل أخرى والسيف في يده، يلقي بنفسه إلقاء ويقتحم اقتحاما موارد الموت، ولكن ملامح هذا الفارس مازالت غائمة بعض الشيء، بل هي صورة المتنبي نفسه وقد هم بالملك فأعجزته الليالي، وتركته وحيدا، انفض عنه الثائرون بعد فشله وخرج مطاردا وحيدا، يتكسب بفنه، حتى الشعراء من أمثاله حسدوه على نبوغه، ولكن الأمل ما يزال يداعبه، والقوة لم تفارقْه والشجاعة زاده، والفروسية صورته في معركة الحياة الضارية[2].

ويتكرر الموقف في معركة أخرى من المعارك التي لا تهدأ وينشد المتنبي الأمير في الميدان:

نزور ديارا ما نحب لها مغنى ونسأل فيها غير ساكنها الإذنا
نقود إليها الآخذات لنا المدى عليها الكماة المحسنون بها ظنا
وقد علم الروم الشقيّون أننا إذا ما تركنا أرضنا خلفنا عدنا
وأنّا إذا ما الموت صرح في الوغى لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا
قصدنا له قصد الحبيب لقاؤه إلينا وقلنا للسيوف هلمّنّا
وخيل حشوناها الأسنة بعدما تكدس من هنّا علينا ومن هنّا
ضربن إلينا بالسياط جهالة فلما تعارفنا ضربن عنّا
تعد القُرى والمُسِ بنا الجيش لمسة نبار إلى ما تشتهي يدك اليمنى
فقد بردت فوق اللُّقان دماؤهم ونحن أناس نتبع البارد السُّخنا
وإن كنت سيف الدولة العَضْبَ فيهم فدعنا نكن قبل الضّراب القنا اللدنا

إن "نا الفاعلين" تجول في القصيدة جولات لها ما وراءها، لقد تضخمت الأنا حتى استحالت الرؤية، أو حتى حدث التطابق بين الذات والآخر، فمن الذي يزور ويقود

([1])– ديوان المتنبي، مرجع سابق، ص:58.

([2])–ماهر حسن فهمي، مرجع سابق، ص:78.

ويقصد ويحشو الأسنة. "نحن" ومن الذي يصادم الروم ويعود إليهم مرة بعد مرة وينتصر عليهم؟ "نحن" أو على وجه الدقة المتنبي وسيف الدولة، كلاهما فارس شجاع ذاق المعارك مع الروم، وعرف الهزيمة حينا والنصر أحيانا كثيرة، لقد وجد نفسه أخيرا وحقق ذاته إلى جوار سيف الدولة، فلم تعد الثورة المكبوتة تجد مكانها في شعره[1].

وإذا توقفنا عند قصيدة المتنبي "و أحرّ قلباه" أدركنا كثيرا من العوامل الوجدانية التي زخر بها فؤاد الشاعر، ففاض بها لسانه، حيث صار لا يرى تطابق الأنا مع الآخر، فالآخر غدا سماعا للوشاة الحاسدين، فأنشد أبو الطيب قصيدته التي فيها من الفخر بالنفس أكثر مما فيها من المدح للأمير، أو قل أن الأنا تتعالى على الآخر:

و أحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمي وحالي عنده سقم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... واسمعت كلماتي من به صمم
أنام مِلْءَ جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم
وجاهل مدّه في جهله ضحكي ... حتى أتته يد فَرَّاسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجةٍ مهجتي من همّ صاحبه ... أدركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحْفلين به ... حتى خرجت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب مني القور والأكم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضُمَيْرا عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحّلتُ عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم[2]

([1])– ينظر في: ظاهرة الأنا في شعر المتنبي بين النظرية والتطبيق، د.ماهر حسن فهمي، مرجع سابق، ص:79.

([2])–ديوان المتنبي، ص: 203، 204، 205.

لماهر حسن فهمي تعليق على هذه القصيدة يحسن بنا أن نورده:

لقد طعن فيما بقي له، في فنه، وقد كان يجد في سيف الدولة العوض عن الملك، والبطولة، وتتحقق ذاته عن طريق التطابق مع الآخر –سيف الدولة– ولذلك تأخذ الذات الجانب المقابل إلى نهايته لرد الاعتبار والتعويض، "أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي" ثم تتجاوز هذا الموقف في محاولة اجتياز ميزات الآخر وسلبها، "الخيل والليل والبيداء تعرفني" تماما كما تعرف سيف الدولة الذي كان يجتازها بجيوشه، ولذا يأتي البيت التالي "صحبت في الفلوات الوحش منفردا" إنه لم يصحب بشرا ولكنه صحب الوحش، ولم يحمه جيش في الفلوات، ولكنه اعتمد على سيفه وحده، وتلك قمة الشجاعة والبطولة لأنه بغير حاجة إلى حماية، ثم تشتد نبرته وهو يحاول ستر نقائصه أو بعبارة أخرى ليعلوا صوته فوق صوت الذات في موقف ضعفها "ما أبعد العيب والنقصان من شرفي" "أنا الثريا" ثم تهدأ انفعالاته وهو يتصور الفراق ويتخيل سيف الدولة نادما الطرف الخاسر والجانب الضعيف[1].

([1])–ماهر حسن فهمي، مرجع سابق، ص:80.

خاتمــة

خاتمــة:

شكلت صورة الأنا المثالية في شعر المتنبي محور هذا البحث، فقد استعرضنا هذه الصورة، وحاولنا أن نضع ايدينا على أسباب ظهورها بالشكل الذي نرى، فتوصلنا من خلال هذا كله إلى نتائج أهمها:

- إن المتنبي صرح شامخ من صروح الأدب العربي، وعلم من أعلام الشعر، وركن وطيد صارع الأيام بنفس جبارة وقناة لا تلين؛ حلّق في سماء المجد والعبقرية فكان خالدا، رغم وضاعة النسب.
- يصدق فيه قول القائل: الأصل الوضيع والتسامي الرفيع.
- تجلي المثالية المطلقة لدى المتنبي بشكل ملفت، والتي لم تلاحظ في أي شاعر عربي آخر.
- بروز الأنا المتضخمة التي ملأت عليه حياته حتى غدا لا يرى في الوجود إلا نفسه.
- حضور الأنا المثالية المتعالية في جل قصائده التي زينت له غروره، وثقته بشخصه، حتى غدا يرى نفسه أفضل من الناس والملوك، وحتى من الأنبياء، أليس هو القائل:

سيعلم الجمع ممن ضمّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

- إن الشخصية الأبرز، والأهم في ديوان المتنبي هي شخصية سيف الدولة الحمداني، حيث قال فيه ما يقارب ثلث الديوان، فمدحه مدحا صادقا لأنه توسم فيه ملامح العظمة وهمة الأبطال، بل وجد فيه ما يلائم نفسه ويشفي غليله، وخاطبه بلغة الأحباب والخلان، حتى إن مدحه لأميره كان اقرب إلى الفخر منه إلى المدح فالمتنبي كان يضع نفسه بمنزلة ممدوحه، وهناك تطابقت الأنا مع الآخر.
- لم يكن المتنبي من المولعين بالهجاء أو المبالين به طبعا وسليقة، ولم يكن الناس عنده، مهما عظموا أهلا لأن يخصّهم ولو بشيء من هجاء. ولذلك ندر هذا الفن في ديوانه، فأتى غضبة عارضة يثور فيها الشاعر على كاذب، مثل كافور، لا يصدق له وعد.

- جال الضمير "أنا" وصال، مع "نا الفاعلين" في المديح خصوصا، حتى استحالت الرؤية وحدث التطابق بين الأنا والآخر.
- حضور الروم في ديوان المتنبي من خلال تغنيه وإشادته بالحروب التي خاضها العرب المسلمون ضدهم

ولله الحمد في الأولى والآخرة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجـع:

القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم

أولا: المصادر:

1- يوسف الشيخ محمد البقاعي، ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1، 2005.

ثانيا: المراجع العربية

1- أبـو عبـد الله الحسـين الزوزنـي، شـرح المعلقـات السـبع، ، بيـت الحكمـة لنشـر والتوزيع، ط:01، 2010.

2- إحسـان عبـاس، تـاريخ النقد الأدبـي عنـد العـرب، ، دار الثقافـة بيـروت، ط:02، 1978.

3- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ، دار الشرق العربي للنشر والتوزيع، بيروت، ط:1، 2006.

4- إيليا الحاوي، في النقد والأدب، ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط:04، 1979.

5- جرجـي زيـدان، تـاريخ آداب اللغـة العربيـة، دار مكتبـة الحيـاة، بيـروت، ط:02، 1978.

6- حنـا الفـاخوري، الجديد فـي الأدب العربـي وتاريخـه، دار الكتـاب اللبنـاني للطباعـة والنشر، بيروت، ط:05، 1963.

7- زكي مبارك النثر الفني في القرن الرابع ، ، دار الجيل، بيروت، د.ط.

8- طه حسين، مع المتنبي، ، دار المعارف، مصر، ط:09، د.ت.

9- عباس حسن، المتنبي وشوقي دراسة نقد وموازنة، ، دار المعارف بمصر، ط:1، 1964.

10-فؤاد أفرام البستاني، أبو الطيب المتنبي المراثي والمفاخر والحكم، دار الشرق، بيروت، ط:09.

11-فـؤاد أفـرام البسـتاني، أبـو الطيـب المتنبـي، المـدائح والأهـاجي، دار المشـرق، بيروت، ط:10، 1973.

12-فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، دط.

13-فوزي عطوي، المتنبي شاعر السيف والقلم، دار الفكر العربي، بيروت، ط:3، 2004.
14-فيصل عباس، مدخل إلى علم النفس، ، دار المنهل اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط1، س2001.
15-القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، د.ط.
16-ماهر حسن فهمي، ظاهرة الأنا في شعر المتنبي بين النظرية والتطبيق.
17-موهوب مصطفاي، المثالية في الشعر العربي، ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:1982.
18-ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط.

رابعا: المعاجم

1- ابن فارس، مجمل اللغة، ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:1 س2008.
2- ابن منظور، لسان العرب ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط:1، 2008.
3- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط:4، 2005.

ثالثا: المراجع المترجمة

1- ريجيس بلاشير، أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي، ، ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

خامسا: الرسائل الجامعية

1- رولا خالد محمد غانم، الآخر في شعر المتنبي، ، إشراف الدكتور عبد الخالق عيسى، تاريخ المناقشة: 2010/10/07 بجامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

فهرس

فهرس الموضوعات

مقدمــة ..... أ-ج

الفصل التمهيدي

مدخل تمهيدي **10**

أولا: الأنــا في اللغة وعلم النفس **12**

أ-الأنا في اللغة 12

ب-الأنا في علم النفس 12

ثانيا: المثالية في اللغة والفلسفة **13**

أ-المثالية في اللغة 13

ب-المثالية في الفلسفة 13

الفصل الأول: المؤثرات الخارجية في شخصية المتنبي

أولا:الحياة الاجتماعية **18**

ثانيا: الحياة السياسية **25**

ثالثا:الحياة الثقافية **32**

الفصل الثاني: الأنا المثالية في شعر المتنبي

أولا: المثالية عند المتنبي **41**

1-مثالية المتعة 42

2-مثالية الجمال 43

3-مثالية العظمة 45

ثانيا:لأنا المثالية المتعالية **48**

ثالثا: الآخر الأنا **57**

الخاتمــة **64**

قائمة المصادر والمراجع **67**

فهرست الموضوعات **70**